

أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٤٧٢]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

منصور ، أنيس .
لو كنت أبويها .
مقالات : أنيس منصور .
ط ٢ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٨ .
١٩٢ من ١٧٤ سم .
تكم ٣ - ٧١٣٤ - ١٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - المقالات العربية .
١ - الطوان .

نوى ٨١٤

رقم الإيداع ٢٧٧٢ / ٢٠٠٨ ١ / ٢٠٠٨

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف الفنان
شريف رضا

أنيس منصور

لو كنت أيوب

مقالات

الطبعة الثانية



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون
الآن أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والظموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.
طه حسين



لحظة فرح

وسط أحداث العالم كله نشرت الصحف والمجلات العالمية أخبار وصور زواج الأميرة آن بنت ملكة بريطانيا وزوجها الكابن فيليبس . وكان الزفاف في نفس اليوم الذي يصادف مرور ألف سنة على قيام المملكة في بريطانيا . وحيث تساءل العالم كله عن لون الفستان ودبلة الخطوبة ، وأين يكون شهر العمل وعلى حساب من . وكم يتكلف الفستان وأين يعيش العروسان . وهل تذهب العروس مع زوجها الضابط في أى مكان يذهب إليه ؟ .

وبالأمس نشرت صحيفة (التايمز) حديثاً مع العروسين استغرق تسعين دقيقة . سئلت العروس إن كانت قد أحببت زوجها . وكان جواب الاثنين : نعم ، ولكن لم يفكر العريس في الزواج إلا منذ شهرين برغم صداقة الاثنين ، ولكن العروس اعترفت بأنه كان معروفاً عنها . وهي تلمیذة أنها سوف تتزوج في أقرب وقت . وسئلت العروس إن كانت أمها الملكة قد تدخلت في اختيار زوجها ، واستنكرت العروس السؤال وقالت : طبعاً لا . . وهل أنا ولد ؟

وهي تقصد أن الولد من الممكن أن يكون ملكاً ولذلك يجب أن يتدخل القصر والوزارة والبرلمان في اختيار الملكة . فليس من حق أى ملك أن يفرض زوجته على الشعب .

وسئلت العروس من أين أتت بتكاليف الرحلة إلى جزر باربادوس حيث تقضى شهر العمل . فأجابت إن الملكة في طريقها إلى هذه الجزر فانتهزت هذه الفرصة

وركبت معها هي وعريسها . .

وكان شيء يمكن السؤال عنه ، وكل شيء يجب أن يقال ، ولكن أهم من ذلك كله أن مئات الملايين من الناس عبر المحيطات وعبر الأقطار الصناعية في كل العالم كانوا ينتظرون الزفاف ورؤية وجه الشابين العروسين السعدين . إن مئات الألوف قد حجزوا مقاعد لهم في الشوارع قبل الزفاف بأيام ليروا العروسين .

إن العالم كله في حاجة إلى لحظة سعادة . . إلى رؤية وجه سعيد . إلى مشاهدة حادث سعيد . . إن الهم والنم والكرب العظيم قد سحق العقول وطمحن القلوب وأباد الأمل في كل مكان ، إن الناس يصحون ويمسون على الدمار والحزب . . والظلم واليأس . . قل لي : أين هو الأمل أو الحياة في هذه الوجوه : جلودا مائبر - ومعناها منيرة ، أو أبا إيمان ومعنى اسمه : أبو حجر - أو ديان - ومعنى اسمه : القاضي المستبد ، إن هذه الوجوه الكئيبة تبعث على اليأس من هذه الحياة ، بل إن سماع هذه الأسماء وذكرها لكابوس بالنهار وعفريت بالليل . .

ولابد أن كل شعب في الدنيا عنده وجوه ألن وأبغض من هذه الوجوه وهذه الأسماء . . ولذلك فالعالم كله يتطلع إلى هذا الزفاف . . كأنه قد هبط علينا من عالم آخر . . وفي طريقه إلى عالم لا نعرفه . . أو عالم نسيناه . . أو تمناه . . إن النظر إلى السعداء راحة - أو عذوى تمنى أن تستقل اليئا . .

ولذلك فالدنيا كلها إنما أرادت أن تستريح في ظل عروسين ربط بينهما الحب واستدرجها إلى جنات النعيم في هذه الحياة . . إنها لحظة لا تنسى عندهما ، ولحظة نسيان للعالم لأن هذه الدنيا مقبرة للأموات وللأحياء أيضا . . إنها فرصة للحالمين أن يقولوا : لو تكون الدنيا هكذا . .

من المستحيل أن تكون كذلك ، ولكن من الممكن أن تكون أحيانا هكذا . .
إنها لحظة في عمق وطول وعرض الأبدية !

السلام : أهم !

العالم كله كان مجرّدا بوزير خارجية أمريكا الأسبق هنري كيسنجر وهو يعرف ذلك . وحريص على أن يكون باهرا أكثر وأن ترتبط المعجزات السياسية باسمه . فهو قادر على اللعب على كل أصابع اليانور ، وقادر على أن يمشى على كل الحبال ، لأنه قادر على التوازن ، التوازن النفسى والتوازن بين كل الاتجاهات المتعارضة . وقد وصفته فى هذا المكان بأنه « خبير لحام » وأنه قادر على أن يقوم بعملية اللحام بين الأطراف مستخدما نار الأوكسجين . .

وقد وصفته بجملة « تايم » الأمريكية بأنه ميكانيكى يصلح السيارات والطائرات وهى تتحرك !

وهو معجب بالوزير الحساوى مترنخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩) لأن هذا الوزير الحساوى استطاع أن يحكم الدبلوماسية الأوربية كلها أربعين عامًا . وأنه هو أيضا مثل مترنخ يعتمد على الصداقات الكبيرة . أى فى حاجة إلى كبير يستنه أو يثق فيه تماما . فإذا وثق به انطلق يصنع المعجزات السياسية أى يصنع الحمازين الهندسية أو المسائل الجبرية المعقدة ، ثم يتولى هو حلها .

ولكن المشكلة دائما هى : ما فائدة هذه المسائل التى يعقدها ويفرج على الناس وهم حائرون فى حلها ثم يقوم هو بحلها ؟ إنها براعة نظرية ، تنفيذ هو ولا تنفيذ أحدا غيره !

ولكن مترنخ كان يريد أن تتوازن القوى فى أوروبا . وكان قادرا على ذلك ،

ومترنخ كان يقول : أنا لا أتوى على فض الخناقات ، أنا أستطيع أن أوجه الممارك
قط ١

يجب أن تكون الأشياء واضحة صارخة لكي يتمكن من رؤيتها وتوجيهها إلى
الحل المتوازن . وكان لابد أن تشتعل النار يوم ٦ أكتوبر ليصبح كل شيء واضحاً
في النار وهنا يتقدم الساحر العجيب كينجر ويحل العقد . .
وكان مترنخ يقول عن نفسه : أنا لا أخطئ ولا أظن أنني أخطأت في تقدير
شيء . .

وقد وصفه السياسي الفرنسي تاليران بقوله : إنه كسول جداً . وثاقه جداً .
ورجل صالونات . .

ووصفه الدوق ولنجتون بأنه : ليس عبقرياً ولكنه أحد رجال المجتمع الذي
لا يمكنك أن تتجاهله . .

وكان مترنخ يتحدث ست لغات بطلاقة تامة . وكان يرى أن هذه ميزة نادرة
في ذلك العصر . .

ووصفت مجلة « تايم » هنري كينجر بأنه مثل السياسي الفرنسي تاليران وأنه
مثل المستشار الألماني بسمارك . وكان بسمارك : متحرراً في تشده ، ومتشدداً في
تحرره . وهذا هو التوازن الصعب . .

وايا كانت عبقرية كينجر في خلق المسائل الهندسية أو الجبرية أو الفلكية
الصعبة ثم استعراض قدرته على حلها ، فالهم أن يكون التغيير مفيداً للسلام
العللي !

نهاية الصين

في حدائق الحيوانات يجد الطيور والوحوش تتحرك في أقفاصها هنا وهناك . كأنها لم تقتنع بأنها سجين في حدود ثابتة لا أمل في زحزحتها . . انظر إلى الدب أو الفهد أو الأسد كلها تدور في أقفاصها ليلا ونهارا . وتفسر ذلك أن هذه الحيوانات في حالة قلق . وأن هذا القلق يدفعها إلى الحركة الدائرية اليائسة . فهي قد عاشت في الغابات الواسعة بلا حدود ، وهي قد توارثت الحركة والانطلاق . ولذلك تضيق بالقيود والسجن . فتضعف صحتها . ويضعف نسلها . وبعض هذه الحيوانات تموت حزنا . . أو بعضها لا تكون له صغار . ويصبح من الحوادث النادرة أن يجد بعض الحيوانات قد ولدت في الأسر - أي في حدائق الحيوانات ! وبعض الناس مثل هذه الحيوانات أيضا . يولدون في الأسر . الأرض ضيقة . والبيوت أضيق . والرزق أكثر ضيقا . ويحس هؤلاء الفقراء أنهم محتقون . وأن هذا الاختناق يدفعهم إلى الانفجار والفجور . إلى الانطلاق . وأكثر الذين عشقوا الدوران في الأرض وحوها قد كانت حياتهم مثل أقفاص الحيوانات لها أعواد أقسى من الحديد . الفقر أقسى من الحديد . الخوف أقسى من الفقر . اليأس أعنف من الخوف . . ولذلك عندما كبوا انطلقوا دون أن يكون لديهم أية آمال في العودة إلى أي مكان . .

وفي يدي الآن كتاب عن الرحالة الاسكتلندي لفنجستون . هذا الرجل وجد أن فرصته الوحيدة هي أن ينطلق إلى العالم الواسع . فاختر إفريقيا . السوداء

الساحرة الخفيفة . وتسلح لفنجستون بالدين وقام يشربه بين الوثنيين وبين متعددى الأزواج . وفي نفس الوقت يريد أن يكشف أسرار هذه القارة ومناجم أنهارها ومصادر المياه لعيون هيروودو بطليموس ومركز الكون .

هرب أول الأمر من الغرفة الضيقة التي كان يتام فيها مع سبعة من الإخوة وأبوين وبعض الأقارب في كثير من الأحيان . ثم هرب من مصنع الغزل الذي يعمل فيه ١٤ ساعة في اليوم . فإذا جاء الليل حشره إخوته ودفعوه إلى أحد جدران الغرفة يتنفس وأنفه ملتصق بالحائط !

وفي أفريقيا ذاق كل ألوان العذاب والتعاسة ، ولم يكن يخفف عنه أنه استطاع أن يعالج الملاريا بعصير الليمون . وبعض الأعشاب الطيبة ، ولا بأن يتحول الناس بوحى من تعاليمه من الوثنية إلى المسيحية . . ولكن كان يسمده فقط . أنه يتام بلا سقف فوقه . ولا جدران حوله . . وكان يتقلب على الأرض ويتعرج في نومه . . كأنه يريد أن يسعد باتساع المكان ، وفي إحدى المرات كادت تقتله أفعى وكاد يهنشه أسد ولكنه كان يقول : هذا أفضل من أن أموت في غرفة ضيقة . والمعنى الذي يريد أن يصل إليه هذا الكتاب الذى صدر للأطفال : أن الضيق في البيت يؤدى إلى الفجور خارجه . . ولكن القيود في البيت تؤدى إلى الانفجار في الشارع ولكن القيود الرشيدة هى التى تدفع إلى الانطلاق نحو ما يفعلك وينفع الناس !

لا طب ولا شفاء ١

عندما نصبحوا اللورد موران طبيب تشرشل فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٦٥ بأن يكون
جسورا مع الزعيم السياسى وأن ينسى في كثير من الأحيان أنه طبيب ، لم يفهم أول
الأمر ، وطلب شيئا من التوضيح ، قيل له : إنه تشرشل !
وتركوا للطبيب أن يفهم على مهله ما قيل له بسرعة . ولما حاول اللورد موران
وهو يراقب كل حركات تشرشل أن يجد تفسيراً لسلوك هذه الشخصية الباهرة . وفي
أول تجربة له : نودى عليه أن يدرك تشرشل فهو مريض . وهو يشكو من إسهال
شديد مع مغص وكان الطبيب لا يعرف بالضبط تاريخ أمراض تشرشل . وذهب
إليه وقال له تشرشل عن أوجاعه . ولكن الطبيب لم يرد . وإنما طلب أن يفحصه
بسرعة .. ونظر إليه تشرشل في ضيق . ولكن الطبيب لم يبال بالشر الذي ينتظر من
عينه . وراح يقلب فيه . وسأله تشرشل : ماذا وجدت ؟ فقال الطبيب : نفس
الذي وجدته أنت . فقال تشرشل : يعنى لابد أن أعاطى هذه الحبوب . ولكن
الطبيب قال : أى شيء إلا هذه الحبوب ، لأنها لم تعد ذات قيمة في علاجك .
فقد اعتاد عليها الجسم واعتدت أنت على أن تتناولها كلما أحسست بشيء مماثل ..
فلا تأخذها .

ونظر إليه تشرشل : أنت أول واحد يقول لى : لا ...
ورد اللورد موران : كطبيب من حقى !
وعندما خرج الطبيب نظر تشرشل إلى سكرتيرته وهو يقول : إننى لا أحب

علماء النفس ١ ولا أصدقهم إنهم مرضى ينقلون إلى زوارهم عدواهم . إنهم أحق الناس بالعلاج !

ولكن تشرشل لم يغير رأيه عندما قيل له أكثر من مرة إن اللورد موران هذا ليس طبيبا نفسيا . إنه طبيب يعالج الأمراض الجسمية ووظائف أعضاء الجسم وما يصيبها من اضطراب . ولكنه أصر على أنه طبيب نفسى . .

وتشرشل لم يتجاوز الحقيقة كثيرا فالطبيب يريد أن يجعله لائقا جسميا ونفسيا . . أن يجعله قادرا على القيام بمهامه الصعبة . وتشرشل لا يطمع في أكثر من ذلك . .

ومعنى ذلك أن الطبيب النفسى أو الجسمى ينظر إلى المريض على أنه (آلة) ، وهو ميكانيكى أو مهندس ميكانيكى ، وهو يعلم مقدما أن المريض لن يتوقف عن العمل وإلا مات من الجوع . ولذلك يرى أن هذه الآلة إنما يتم إصلاحها وهى متحركة . . وهو يحاول أن يقنع المريض بأن يعمل ولكن بحساب ، ومحاولة الإقناع هذه ليست طببا جسميا وإنما هى طب نفسى . . وهذه هى مشكلة الأطباء : أنهم أمام مرضى غير قادرين على أن يتوقفوا عن العمل بعض الوقت ليستريحوا ، وإلا أصبحوا عاجزين عن مواصلة الحياة ، ولذلك فلا علاج لهم !

ولما كان أى إنسان غير مستعد أن يذهب إلى أى طبيب نفسى أو عقلى لأنه يخشى أن يوصف بأنه مجنون فإنه يذهب إلى الطبيب الجسمى يشكو له متاعب نفسية وعقلية . وتلفت الطبيب الجسمى إلى أثر هذه المتاعب النفسية في أعضاء المريض . فيجدها أولا يحددها . ثم يقلب في جسمه ويصف له بعض الحبوب والحقن للعلاج . . ويخرج الطبيب غير راض ، ويبقى المريض غير مرتاح ، ويحاول الطبيب أن يقول للمريض استرح ويحاول المريض أن يفعل ذلك ولكنه لا يستطيع لأن الحبوب والحقن ليست هى العلاج . . وتكون النتيجة ماذا : أن يصير كل

تشرشل على أن طبيه يصف له ما ليس فيه . . ويصر كل لورد موران على أن مريضه تحفة نادرة - ولا علاج ولا شفاء . . فالحمد لله الذى لا يحمد على طب سواه !

لو كنت أيوب

كل عصر من العصور له « أيوب » الذى يصبر على البلاء ولا يقول : آه . . ويرى أن الصبر هو الوسيلة الوحيدة لتطهير النفس والسيطرة على الشيطان والطريقة الوحيدة إلى رضا الله . .

وكل انسان يتصور أنه هو نفسه « أيوب » لأنه صبر ولم ينل شيئا . وأنه مظلوم من كل الناس وأن الجنة سواه والنار للجميع . . .
وكل امرأة ترى أنها هى وحدها « أيوب » فى كل وقت . وأنها صبرت وتغذبت بلا سبب . وأن القتاتل والجرم والمعتدى عليها دائما هو الرجل : زوجها أو أبوها أو ابنها أو رئيسها . . ومن الممكن أن يتزل الرجل عن عرش العذاب . ولكن المرأة لا يمكن أن تعترف بأنها ظلة أو قاتلة أو مصدر تعاسة أحد من الناس . . فالجلوس على العرش ، أى عرش ، مسألة وزاة !

وعندما أخذ المؤرخ الفرنسى كاستيلو يذكّر عدد الصابرين فى تاريخ فرنسا لم يجد أحدا له صبر أقسى من صبر أيوب مثل الملك لويس الرابع عشر . فقد عرض حياته ، وفى حياته توقف بلهث عند جميع أنواع العذاب والحوان . العذاب المعنوى : كل أنواع الشك والحوان والقلق والخوف والهزيمة . والعذاب الجسدى أيضا ، فلا يوجد مرض لم يعرفه جسم الملك لويس الرابع عشر . بل إن المؤرخ كاستيلو قد أمتع القارئ بالهاورات التى دارت بين الأطباء الأربعة الذين عالجوا

الملك وهم قالو وداكان وقابون وفليكس ، فلا يكاد هؤلاء الأطباء يفرغون من عملية للملك حتى يتناقشوا في موعد العملية القادمة ، وقد أجريت للملك - في نهاية القرن السابع عشر - اثنتان وعشرون عملية جراحية . . ولما شعر الملك بشيء من العذاب طلب إلى الأديب راسين أن يخفف عنه ، فذهب الأديب وأتى له بكتاب « حياة العظماء » للكاتب اللاتيني بلوتارك وراح يقرأ له ، ومن الغريب أن راسين كان يرفع صوته حتى يعلو على صوت المعركة - معركة الأطباء مع المرض ومعركة الملك مع الأطباء . . وكان الملك يستعيد بعض السطور وأحيانا بعض الصفحات .

وتشجع الأديب وهو مبهور بصلافة الملك فقال له : مولاي . . أما يزال عندك أمل في هذه الحياة ؟

فقال الملك : لا يزال عندى أمل في أن أرى هؤلاء الأربعة مرضى وكل الناس موفى !

أخيرا . . فقد أيوب صبره ولكن قبل وفاته بيوم واحد !

كازانوف

كازانوف - رجل سيئ السمعة ، لأنه نصاب ومغامر ومقامر وذئب الليل وجاسوس وسافل في جميع الحالات . ولكنه مع ذلك كاتب وأديب وفيلسوف ولكن من السهل أن يشتبه الناس ومن الصعب أن يملحوه . لأن المدح يقتضى أن يقرأ الإنسان كتابه « تاريخ حياتى » الذى صدر منذ سنوات في اثني عشر جزءا . وكازانوف كاتب إيطالى ولد في البندقية من أبوين يعملان في التيل . وكازانوف هذا يعلم منذ بداية حياته أنه لن يكون إنسانا محترما ، ولذلك تعلق بالناس المحترمين .

وحشر نفسه في الطبقة الأرستقراطية . ورأيه في هذا الطبقة : « أنها مجموعة من الناس التافهين الكاذبين الراغبين في التسلية بشرط أن يكون الضحية واحداً منهم . وهم كسالى في حاجة إلى جواسيس » .

وكان يعلم أيضا أنه أسهل جدا أن تغزو قلب المرأة من أن تغزو أصغر قلعة في الدنيا . لماذا ؟ يقول لك الفيلسوف كازانوف : لا توجد امرأة لا يغريها أن تقول لها إنك جميلة . هذه بدئية . مها كانت قبيحة . ومها كانت تسمع هذه الكلمة مليون مرة في اليوم ومن مليون شاب أجمل وأغنى منك . ولكن عبقرية الرجال تظهر في الوقت الذي تقول فيه هذه العبارة السحرية . عبقرتي هي أن أقولها في الوقت غير المناسب . أى عندما يكون أى مديح نوعا من المفاجأة لها . مثلا : « لو سقطت سيدة في الوحل وانكسرت ساقها ، في هذه اللحظة التي تلدوب فيها عيون الناس كذبا . . هنا فقط قل العبارة غير المناسبة . . قلها ولا تتردد . سوف تكون سخيفا ووقحا وسافلا ، ولكن المرأة لن تنسى لك هذه الجملة مدى حياتها ، وغير ذلك عشرات الأمثلة للسفالة المدروسة !

وأعجبني لكازانوف (١٧٢٥ - ١٧٩٨) رأيه في الناس يقول : ما الذي تريده من الناس ؟ لا شيء سوى أن يكونوا في خدمتك ، ما الذي تريده من خدمات الناس ؟ أن يكونوا جسرا إلى مطامعك ؟ ما الذي تريده من المطامع ؟ أن تكون وحدك فوق أصدقاء الناس . . إذن لا بد من الناس أردت أولم ترد . . ولا بد أن تقع في خلاف مع الناس . . مدى حياتك . . ولكن كيف تنجو من سفالة الناس ؟ هناك حلول : أن تكون سافلا مثلهم . . وأن تتظاهر بالفضيلة وأنت كاذب . . وأن تتوارى خلف سيدة جميلة غنية ، هنا فقط تصبح جميلا في عيون الناس ! ويقول : علمتني تجاربي أنه ليس أحقر من الناس إلا الناس !

والكتاب ملئ بالتجارب والتوارد والحوادث التي وقعت في نصف قرن في

بلاط الملوك والأمراء والأغنياء . والكتاب ممنوع لولا أن المؤلف قد اختار أنشط الناس وأحط الأشياء مادة لكتابته . . إنه فيلسوف فنان اختار الحقايرة والندالة - ولكنه يستحق الاحترام لأنه لم يخف عيوبه - وهذه صفة يفتقدها كثير من الكتاب !

منتهى التعب

رأيت مارلين مونرو خمس دقائق . لذلك عندما انتحرت حزنت عليها جدا . وكل ما دار بيني وبينها أنها أشارت بذرعاها من بعيد : هالو . . فرددت عليها قائلاً : هالو . .

وانتهت بذلك المقابلة التي أعدها مدير أعمالها ومدير دعايتها وسكرتيرتها الخاصة لكي أحظى منها بكلمة أو بعبارة أو ابتسامة شخصية ، فهي معبودة الملايين . وهي معلقة على جدار في أركان الدنيا إلى جوار الكوكا - أشهر ما أخرجت أمريكا للعالم . ومارلين مونرو كانت المرأة الوحيدة في العالم التي تغار منها أية امرأة . للو وجدت أية زوجة صورة مارلين مونرو في جيب زوجها لا تهتم في ذوقه وأخرجت من حقيقتها هي صورة أجمل لمارلين وقدمتها للزوج - لأنه لا وجه للمقارنة بينها وبين أية امرأة أخرى . لأنها ليست كالنساء في الجمال والدلال والأنوثة . . وهي ليست كأية امرأة أخرى في عذابها : فهي قطعة من اللحم الوردي يشوبها المخرجون والمصورون في نور ونار الاستوديوهات ويقلمونها للملايين طعاماً للمحرومين . ولذلك لا وقت عندها للراحة أو للنوم أو للحياة الخاصة . . ولا حرية لها في أن تروح ولجيء ولا أن تتكلم مع أحد من الناس - أنا مثلاً . فهناك من يكتب لها الكلام . لأن الكلام ليس صناعتها ، وهي لا تعرف ما ينفعها ولا الذي يضرها

نفسي وتجاريا ، ولذلك استولى عليها ، باسم الدفاع عنها ، عشرات الخبراء في البيع والشراء .

- فهي لا تعرف ولم تعرف الراحة . لأن كل شيء محسوب بالدقيقة والثانية والمليون دولار . وتزوجها الكاتب الأمريكي اليهودي آرثر ميللر . وكانت مبهورة به . فهو مفكر وفيلسوف وفنان . وهي فتاة ساذجة عادية غير مثقفة . واستولى عليها تمامًا . وتدخل في أعمالها وأموالها . وعندما انتحرت بالخمير والحبوب المتومة تحولت إلى مشهد من مسرحية (بعد السقوط) التي كتبها آرثر ميللر . وعاب عليها أن لديها شعورا بالامتنان لكل الناس ونهبها إلى أن الناس جميعا يجب أن يشعروا بالامتنان لها ! وكانت مسرحيته نوعاً من التشريع الشرعي للجنة قبل دفنها نهائيًا !

وقد نشر في الصحف والمجلات العالمية مقال طويل لكاتب يهودي آخر هو نورمان مايلريصف فيه زواج (الأميرة اليهودية مارلين مونرو) من آرثر ميللر . وهو يتناول حياتها من جديد وفي عبارة جميلة ساخرة أليمة . . وكأنه هو أيضًا يريد أن يدافع عن آرثر ميللر الحي أمام مارلين مونرو الميتة . . ويقول هنري مايلر : إن زوجها قد أصر على أن تعتنق الديانة اليهودية قبل زواجها !

فجاء هذا الإصرار غريباً من رجل فنان عالمي شيوعي واسع الأفق . . ولكنه رغم كل شيء لم ينس أنه يهودي ، وأن زوجته الكاثوليكية يجب أن تغير دينها . ولا يهيم بعد ذلك أن تعيش أو تموت . . المهم أنه أضافها إلى طائفته ! : شيء عجيب : كل هذا المقال الجميل الرائع المثير من أجل هذا المعنى :

منتهى التعصب !

بعد عبد الناصر . .

كلما مر وقت أطول على حياة و وفاة جمال عبد الناصر عرفنا - بالضبط -
أبعاد المعركة التي عاشها والتي عاش من بعدها . . فليس واضحاً الآن ماذا جرى
على أرضنا، يوم العدوان ويوم النكسة . .

ولا هو معروف بوضوح ماذا دار وراء الأبواب الكثيرة المغلقة هنا وفي العواصم
العربية والأوربية والأمريكية . إن كل الذي قرأناه وسمعنا عنه كان مصدره الطرف
الأخر . ولكن لا خلاف بين أحد من الأصدقاء والأعداء على الأحوال الجلية التي
حققتها ثورة ٥٢ على كل مستوى . ويقدر ما كانت مشاكلها صعبة . يقدر ما كانت
تعدياتها أصعب . ويقدر ما كانت مكاسبنا كبيرة ، يقدر ما كان الثمن الذي دفعه
الشعب فادحاً . ولا ثورة بلا ثمن . . ولا ثمن بغير عرق ودم . . اليوم وغداً وبعد
غداً !

وقد لمجح جمال عبد الناصر في تغيير مسار التاريخ للمصرى والتاريخ العربى .
وتكاثر عليه وعلينا الأعداء الأقرباء الأغنياء . وتضاعفت مصاعبنا وتكسرت
هوماننا وزاكرمت مشاكلنا . وسوف تبقى كذلك فترة طويلة . .

ولذلك كانت أعباء خليفة جمال عبد الناصر ثقيلة . وكانت احتياجاته إلى القوة
والضخيم والتدبير لا حدود لها . وقد استطاع أنور السادات في فترة قصيرة أن يعيد
الكثير من الأوضاع والعلاقات الإنسانية والاجتماعية إلى مسارها الطبيعى والسليم .
وكان عليه أن يواجه المشاكل من جديد .

مشاكل الأعداء والأصدقاء ، في الخارج وفي الداخل . وكلها تحديات هائلة ومروعة أيضًا . . .

وليس من قبيل الصدفة أن تحتفل مصر في أيام متقاربة بذكرى وفاة جمال عبد الناصر وبيوم المعلم . . . فقد كان جمال عبد الناصر معلمًا في الكلية الحربية وكان - ككل الزعماء - معلمًا لشعبه أيضًا . وليس غريبًا أن يقف الرئيس أنور السادات متحدثًا في ذكرى المعلم جمال عبد الناصر ، وفي يوم المعلم أيضًا . . . فالزعماء أساندة الشعوب وأباؤها كذلك . . .

وكان أول درس ألقاه أنور السادات على شعبه موضوعه : العلم والإيمان . . . أوبالعلم والإيمان يمكن لمصر أن تحمي ذكرى رجالها ومعلميها وأن تؤمن بأن النصر حليفنا مادامنا تؤمن بذلك . . . ومادام إيماننا بعلم ، وليس عن وهم . . . رحم الله جمال عبد الناصر ، لقاء ما صنع لمصر وللأمة العربية ، ورحم الله خليفته أنور السادات ومن ينصر الله ينصره ويثبت أقدامه . . . والذكرى تنفع المؤمنين ! . . .

الطريق إلى العقاد

عندما كنت في فرنسا قالوا لنا : في هذا الطريق كان يمشي نابليون . وننظر إلى الطريق فلا نعرف ما هي العلاقة بين عبقرية نابليون العسكرية والسياسية والإدارية وبين هذه الأشجار وهذه الأعشاب . . . وأشعة الشمس تجيء من وراء السحب تضيء جانبًا من كل شيء ! لا علاقة ولكنه تاريخ نابليون قد جعل لكل حجرة وكل شجرة معنى ، كأنها شاركت في قراراته التاريخية لعبور الألب وإحراق موسكو واحترق الأسطول الفرنسي في الإسكندرية . . .

وعندما كنت في مدينة اتسبروك بالمسا كان يقال لنا : وهذا هو الطريق الذي كان يمشى فيه الشاعر العظيم جيته . وكان يرافقه أحياناً الموسيقار العظيم يتهوفن : وفي هذا الطريق استوقفها أحد الناس الطيبين ورفع القبعة لها وسألها : إن كان أحدهما العمدة !

وفي مدينة تينجن بألمانيا قالوا لي : وفي هذا الطريق كان فيلسوف الوجودية مارتين هيلجر يمشى . . ويتوكأ على عصاه لا عن ضعف في صحته ولكن عن وجهة نظر وهي : أنه ليس صحيحاً أن الإنسان استطاع أن يعتمد على عينيه فقط ، أو أذنيه فقط أو ساقيه فقط . . وإنما الإنسان يحتاج إلى أطراف كثيرة تضاف إلى أطرافه وإحساساته الخمس لكي يرى أبعد ، ولكن يجعل غيره يرى أبعد وأوسع وأعمق وأصدق . . فليست هذه العصا في يده إلا رمزا لضرورة أن تتوكل العين على التلسكوب ، والأذن على الرادار . والساق على الصواريخ ، والعقل الإنسانى على عشرات العقول الأخرى وعلى الله . !

ولا علاقة هناك بين هدوء هذا الفيلسوف وصوت العصافير حولي ، ولا نعومة المنحنيات واتساعها واستقامتها . ولا أعرف لماذا اختار هذا الطريق . . كأنما الرجل قد جاء إلى هذا الطريق ليعرض نفسه على الأشجار وعلى السحب وعلى الضياء الكسبية ، ويمشى مشغولاً بالذي في رأسه . . لكنه سار من هنا ، ولذلك فالطريق له معنى تاريخي ، بالإضافة إلى معناه الجغرافي - هكذا قيل لي وهكذا تصورت ! ولكن لم أر طريقاً أروع ولا أمتع من الطريق بين القاهرة ومصر الجديدة . شيء عجيب كان يحدث كل يوم جمعة . فالشمس تشرق مبكرة جداً . وبسرعة . ولكن هذه الشمس تظل بطيئة جداً بين الخامسة حتى التاسعة والنصف من صباح هذا اليوم . . فلا بد أن نضيق هذا الوقت بأي شكل قبل أن يحن الموعد المحدد لزيارة الأستاذ العقاد في بيته بمصر الجديدة . ولكن هذا الطريق ليست له معالم في

عنى . . إنه صغير ضيق . والأشجار قريبة من النوافذ . . والبيوت تكاد تلتصق
بالمترى ، بل أكاد أسمع أحاديث الناس . وأجد لها فرصة لكى أضحك من هؤلاء
الذين يتحدثون كلاما سخيفا . . ولا يتركون طعامهم وشرابهم وأولادهم
ويقفزون معنا فى الطريق إلى العقاد . فكل الطريق هو العقاد نفسه . مستقيم مثل
منطق العقاد . . والهارات طبقات بعضها فوق بعض مثل المقدمات والتأجيل فى
مقالات العقاد . والشمس لم تدع شجرة ولا حجرة إلا أبرزتها ، تماما كالوضوح
الذى يشرق فى كتب العقاد . وهذه الأعلام المرفوعة على المصالح الحكومية ،
ليس سببها أن الناس فى إجازة . . وأنها احترام لكل من يستريح من عمله . .
أو معناها إذا غاب الموظفون ، فالدولة باقية . . ولكن معناها ، وكان ذلك
إحساسى ، أنها مرفوعة تحية لكل من يذهب إلى بيت العقاد .

ولجئ مصر الجديدة بطيئة . . وأتراحم على الباب . وأقول أتراحم ، لأننى
مجموعة كبيرة من إحساسات الشوق والقلق والخوف والاعتزاز والاحترام وجب
المعرفة . وبسرعة أهبط من المترى . وأتجه إلى شارع السلطان سليم رقم ١٢ . .
وأصعد السلام التى لم أعرف عددها رغم أننى تسلقتها عشرين عاما . . فلم أكن
أشعر بها . . وإنما كنت أنتطح إلى نهايتها . . ولم أكن أنسلقها ، وإنما كانت هى
تترلق تحت قدمى ، والباب الذى عرفت فيها بعد أنه ضيق جدا . والممر الذى
عرفت أنه قصير . . والغرفة خائفة وكنت أراها واسعة ، كمقل العقاد ، دافئة
كقلبه ، باهرة كفكره . .

ولم تكن جلسة العقاد كل يوم جمعة ، محاضرة أو ندوة . . وإنما متعة للعقل
وراحة للنفس ، وشحنة هائلة من احترام الفكر الإنسانى ، تعيننا على بقية الأيام
والسنوات . فقد كان العقاد كثرًا لا يفنى وكان الطريق إليه شوقًا إليه ، وتلهفًا على
الجلوس معه ، وخوفًا من أن يسبقنا أحد إلى ذلك ولو بدقيقة واحدة .

عصا السادات

• الله يكون في عون أنور السادات فالناس ينظرون إلى العصا التي في يده ، والتي قطعها من إحدى شجيرات غزة ، على أنها عصا موسى . . فهو يستطيع بهذه العصا أن يضرب البحر فينشق نصفين : نصف من الذهب ونصف من الفضة . وأن هذا الذهب سيتحول بسرعة إلى أقراط في أذن كل فتاة ، والفضة إلى ملاعق في فم كل رجل . .

وأن أنور السادات قادر على أن يلقى بعصاه فإذا هي حية تسمى تأكل الفقر والجوع والجهل والمرض والخوف والدمار ، في لحظة عين .

وأن أنور السادات قادر على أن يرفع عصاه فوق رأسه فتكون « مانعة الصواعق » التي تنجم من الشرق ومن الغرب وأنه وحده الذي يمتص الشحنات الكهربائية الحارقة ، فإذا الكهرياء نور ، وإذا النار برد وسلام علينا جميعا ! وهذا حسن ظن عظيم بالقائد المؤمن أنور السادات . ولكنه عبء ثقیل عليه ،

فهو لن يستطيع ذلك ، ولا استطاعه أحد في كل العصور بهذه السرعة ! ولكننا نتطلع إلى المستقبل بكل آمالنا ، وكل حرمان السنين الطويلة ونتعجل بعد الغد ، قبل الغد نفسه ومعنا حق . فنحن نريد أن نعبث إلى أبعد مما عبرت قراتنا العسكرية . . ونريد أن نخرج العمارات من تحت الأرض كاملة سليمة ، كأننا أخفيناها عن العدو . . ولكن بتعويذه سحرية خرجت تاطحات السحاب في بورسعيد والسويس والإسماعيلية . واستوت الطرق وعلى جانبيها الحدائق ،

واتسعت الموانئ وتكاثرت فيها السلع ، وتضاعفت مطارات مصر ، وتكاثرت
الفتادق العالية ، وزحف ملايين الشبان إلى مكاتبهم ومصانعهم وثكناتهم في حيوية
وسعادة . كل ذلك أملنا ، وأمل أئور السادات . ولم يعد لدينا أدنى شك في
ذلك !

« ولكن » . . لا بد من هذه الكلمة طبعًا . نحن نحتاج إلى صبر . لأن الطريق
طويل وشاق وصعب ولا يمكن لرجل واحد أن يمشي دون مساعدة من الملايين
ولذلك يجب أن نعمل معًا . وأن نصبر معًا وأن نحلم وعبوتنا مفتوحة . . وسوف
تكون لنا في النهاية هذه العصا السحرية . هذه العصا مكتوب عليها : العلم
والإيمان : فالعلم نور ، والإيمان صبر . ولقد جربنا ذلك وكان لنا ما أسعدنا يوم ٦
أكتوبر وما بعده . . فزيّدًا من العلم والإيمان وسوف تثبت العصا السحرية في كل
حقل من أرضنا العربية !

لغز العرب

كل متاعب الإنسان تبدأ في طفولته . أى عندما يصاب بشيء يوجعه ثم
لا يقوى على التخلص منه . فيظل هذا الوجع دفينًا في أعماقه فيلوى سلوكه العام إلى
أن يكتشفه الطبيب : فكل أوجاع الرجولة ولدت في الطفولة هذه نظرية .
وقد صدرت أخيرًا كتب عن « لورانس العرب » - ذلك الشاب ت . أ .
لورانس الذى حارب مع العرب والإنجليز ضد الأتراك في نهاية القرن الماضى
وأوائل القرن العشرين . هذا الشاب نموذج للشخصية الخرافية البطولية الشاذة .
فقد اتخذ شباب العالم نموذجًا عاليًا للمغامرة والمقاومة فهو إنسان متعدد المواهب .
كاتب وفيلسوف وجندى ومقاتل وأثرى . . وشخصية انتحارية أيضًا . . ومشكوك

في جميع أفكاره مع العرب أو مع الإنجليز أو ضد العرب والإنجليز معا ، والكتاب الذي صدر أخيراً يتساءل . هل صحيح لورانس إنسان معقد من المرأة ؟ ويتبدى المؤلف إلى أنه كذلك فلم يعرف أحد أن له علاقات نسائية وإنما تقدم مرة إلى فتاة جميلة . ومن يومها لم يرفع عينه إلى واحدة أخرى أو يمد يده ، وقرر أن يعيش مع الرجال وبينهم . ولما سئلت هذه الفتاة العجوز قبل وفاتها منذ تسع سنوات لماذا رفضت لورانس مؤلف «أعمدة الحكمة السبعة» قالت : إنه خجول جدا . إنه لم ينظر إلى عيني . إنه لم يمهد لهذه الرغبة . ثم إنه قصير القامة جدا . ولذلك فضلت أخاه الأكبر الأطول الأجرأ !

ولكن قبل ذلك انكسرت ساقاه . ولم يفلح الطب في أن يشفيه من هذه الكسور . وقد أدى ذلك إلى تعويق نموه . فكان طوله متراً ونصفاً . ثم إنه اكتشف أنه ابن غير شرعي وصدمته هذه الفضيحة . . . وهرب من أوروبا إلى الشرق وألقى بنفسه في الصحراء يحارب الأتراك ويمشي أياماً على قدميه . . . ويسافر من فلسطين إلى مصر على ظهر أربعة خيول يموت الواحد بعد الآخر ويكمل الطريق على ساقه الهزليتين . . . ثم يحارب مع الإنجليز ضد الأتراك . . . ثم إذا باللورد بالفور يعد اليهود بوطن قومي . ويتمعه العرب بالخيانة ويهرب من الجيش . ليعود إليه باسم مستعار . . . ثم يركب موتوسيكلًا . . . ويقوده بسرعة مجنونة ويحقق حلم حياته فيغيب عن الوعي أياماً فلا يدري أنه مات في ١٩ مايو سنة ١٩٣٥ عن ٤٧ عاماً . . . ورغم هذا العنث في حياته . أوبسيه . فهو إنسان متعدد المواهب . ظل طول عمره يلاحق الموت في البر والبحر وأكلجو . حتى طار من فوق الموتوسيكل . واصطدم بشجرة ألقت به في الماء لغزا من ألباز الثورة العربية ضد الأتراك والإنجليز !

لا يعرف الملل . .

من الضروري أن تستغرب كل ما حولك من حين إلى حين . لأننا نعيش حكم العادة ، وبحكم العادة لا نلتفت كثيرا إلى الذي حولنا من الناس أو الأشياء . فالشارع الذي نمشي فيه عشرات السنين لا تعرف ملامحه بوضوح . بل لا تعرف أسماء المحلات ولا ألوانها ولا أحجامها . . وأنت لا تنظر عادة إلى كل النوافذ والبلكونات . . وإنما تمشي بعينك عليها دون أن تميزها . . لماذا ؟ لأنك اعتدت عليها . . اعتدت على أن تراها بصورة عامة . . أى اعتدت على ألا تراها ! وكذلك الناس . كلهم بحكم العادة مثل النوافذ والبلكونات ليسوا واضحين تماما . . فأننا وأنت ونحن جميعا نحول الأشياء كلها إلى مجرد عادات : : أو إلى أشياء عادية غير محددة الملامح أى ليست لها صفات بارزة في اللون والطعم والحجم . لماذا ؟ لأن « العادة » قادرة على مسح الناس واستبعاد أهم ملامحهم ومزاياهم . .

ومن هنا يدخل الملل حياتنا . .

فالملل يولد من التشابه بين الأشياء وبين الناس وبين الأفكار والأصوات . . ولكي تترب من الملل يجب أن تجعل للأشياء والناس طعما متنوعا ولونا مختلفا . ولذلك فالطفل لا يعرف الملل لأن كل شيء جديد عليه وجديد عنه ، وقد يرى الطفل ظللة صغيرة فيرمى نفسه عليها . . وكأنها كثر . . أو كأنها أعظم شيء في الدنيا . . بينما ينظر الواحد منا إلى صاروخ وكأنه يرى عربة كارو . . لا شيء

يدهش . . لا شيء يستغفقه . ولذلك عرفنا الملل الذى لا يعرفه الطفل !
وأكثر الناس استمتاعا بالحياة هم الذين عندهم هذه النظرة الطفولية أو هذه
القدرة على أن تستغفهم كل الأشياء صغيرة أو كبيرة . . ومن أهم صفات العباقرة
أن لديهم هذه الطفولة حتى الموت ، ويقال عن العالم الكبير نيوتن إن زوجة أحد
الأصدقاء قد أهدته بلوفر من الصوف . وشكرها على هذه الهدية ، وكنا زاره أحد
من الناس عرض عليه البلوفر . وامتنح ذوق هذه السيدة . ولاحظ أحد أصدقائه
أنه أسرف في تقدير الهدية . . ولكن دهشة هذا الصديق قد بلغت مداها عندما علم
أن نيوتن مفتون بهذا البلوفر لأن به خيط أحمر على الصدر .
والذى لم يعرفه نيوتن هو أن السيدة التى صنعت له هذه الهدية لم تقصد ذلك
مطلقا . وإنما هذا الخيط الأحمر قد جاء خطأ . ولكنه مثل أى طفل وقعت عيناه
على شيء أحمر فأعجبه تماما !
مع أن الذى رآه شيء صغير . . ولكن الشيء الصغير عند الأطفال العباقرة ،
شيء كبير مذهش ، وهذا هو الفرق بين الذين لا يعرفون الملل ، والذين لا يعرفون
إلا الملل !

الهرم مفاجأة !

قالوا : الدنيا بها سبع عجائب .
هذه العجائب هى برج بابل والهرم وحدائق بابل وأسوار بابل وفنار
الإسكندرية وبعض التماثيل وربما كان أبو الهول واحدا من هذه العجائب .
وهى جميعا ليست من العجائب الآن ، ولكن الأعجوبة التى كانت وما تزال
هى : الهرم الأكبر ، ليس هذا رأيي . ولكنه رأى العلماء . أحدث رأيي لهم نشرته

بجثة ريدر دايجست الأمريكية في عددها الأخير . الرأى يقول : إنه لا يمكن أن يكون الهرم قد بنى في عشرين عاما كما قال المؤرخ اليونانى هيودوت وفي نفس الوقت لا يمكن إلا أن يكون قد بنى في هذه المدة . .

فالذى بنى الهرم الأكبر ، أو الذى بنى في عهده ، هو الملك خوفو . وهو قد حكم مصر ٢٣ عاما . ولو مات الملك دون أن يكمل بناء الهرم فسوف يبق ناقصا ، كما حدث لأعمال معمارية فلكية كثيرة . إذن لابد أن يكون قد أكمل بناؤه في عصره .

وهذا الهرم بأحجاره التى بلغت مليونين ونصف مليون حجر والتى ألصقت بعضها ببعض دون أتمنت أو مونة ودون أن تتسكن من إدخال ورقة بين أى حجرين ، لا يمكن أن يكون قد بنى في عشرين عاما . فالأحجار كثيرة وأوزانها بين عشرة أطنان وخمسين طنا وارتفاع الهرم يعادل ارتفاع عمارة من أربعين طابقا . أوكما قال نابليون أن أحجار الهرم يمكن أن تدور حول فرنسا على شكل سور ارتفاعه عشر ياردات وعرضه ياردة واحدة . .

يقول العلماء من المستحيل أن يكون هذا البناء الشاهق قد تم في هذه الفترة القصيرة .

ويقول هيودوت إنه سمع من رجال الدين للمصريين أن المهندسين استخدموا عددا كبيرا من الروافع . ولم يشرح لنا معنى هذه الروافع ولا شكلها ولا حجمها . ولا كيف أنها رفعت الأحجار إلى هذا العلو دون أن ترى خدشا واحدا على الحجر ١ .

هناك نظرية تقول : إن ظهور الهرم بهذه الصورة الكاملة يعتبر مفاجأة هندسية معمارية فلكية . فلا توجد أية مقدمات معمارية لهذا البناء العظيم . وإنما ظهر فجأة . وهذا غير مألوف في تاريخ الحضارة الإنسانية . إذن لابد أن تجيء كائنات

من كواكب أخرى لمساعدة الفراعة في بناء هذا الهرم ! .
ثم إن شكل الهرم ، وأبعاده طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، ليس إلا تسجيلاً فلكياً
للهيئة السماوية يوم أقيم الهرم . ويمكن حساب كل معالم السماء فوقنا عن طريق
ضرب وطرح وقسمة أبعاد الهرم بعضها على بعض ! .
ونظرية جديدة نقول : إن الهرم قد استخدم في بنائه العقل الإلكتروني . وأكثر
من ذلك أن أشعة ليزر قد استخدمها الفراعة في قطع الأحجار .

ونظرية أخرى نقول : لا بد أن يكون الفراعة قد اهتموا إلى اختراع وسيلة
علمية متطورة جداً لخلق حزام لانعدام الوزن عند سطح الأرض ! بمعنى أنه
يستطيعون رفع أى حجر أيا كان وزنه . بإصبع طفل صغير تماماً كما يحدث في سفن
الفضاء . أو كما يحدث على سطح القمر ، حيث لا توجد إلا جاذبية ضئيلة . . . وإلا
استحال عليهم تماماً وضع هذه الكتل الجرانيتية على هذا المستوى العالى من سطح
الأرض !

ولو كان الهرم هو المعجزة الوحيدة لقلنا إن كائنات من كواكب أخرى هبطت
فجأة وسيطرت عليها هذه التروة . . ولكن الطب الفرعونى والزراعة والحرب
والسياسة والعارة والفن ، كلها معجزات عقلية ووجدانية . . إننا صناع الماضى
كله . فهل يكون لنا نصيب من معجزات المستقبل !

ذهابا وإيابا

أعجبتني هذه الفكرة : إن المنطقة التي تمدنا بشيء يجب أن نعلم أهلها كيف يمدوننا بشيء أفضل !
وهي نظرية أيضًا .

مثلا في ولاية (تيزي - أوزو) في الجزائر توجد مدرسة . هذه المدرسة لتعليم المواطنين الخدمة في المطاعم والفنادق . المدرسة نظيفة جدا - ككل شيء . والطلبة هم الذين يقومون بكل العمل : الغسل والكبس والطبخ وتقديم الطعام والحساب . وابتداء من الباب الرئيسي حتى تخرج فكل الذين تراهم طلبة .
والمهم أن هذه المدرسة إحدى اثنتين في الجزائر . وهذه المدرسة تبعد عن العاصمة حوالي ٢٥٠ كيلومتر .

وهذه المنطقة من الجزائر قد اشتهرت بأن كل الذين يعملون في المطاعم يعيشون منها ، تماما كما أن عدد المشتغلين في المطاعم في مصر يعيشون من أسوان وأسيوط وكذلك البوابون . ولذلك كان من الأفضل إنشاء مدرسة في هذه المناطق لتعليم الناس كيف يكونون سفرجية بصورة علمية مفيدة . وتتوقع إدارة المدرسة أن يتزايد عدد الطلبة لأن هذه الصناعة مربحة . ولأن من طبيعة سكان هذه الولاية : النظام والنظافة والأدب .

سألت مدير المدرسة : ألا توجد فتيات ؟

فقال : ألا توجد ؟

وسألت : إن كان هناك أى سبب لعدم وجود فتيات ؟
وقال : إننا فى منطقة بدوية ..

ولاحظت أيضاً أن فى بعض المدارس إذا حاولنا التقاط صور للفتيات أخذت كل واحدة وجهها - طبعاً لا علاقة بين إخفاء الوجه وظهور الساقين فى الملابس القصيرة .. فالملابس القصيرة موضة . والمرأة هنا موضة جدا . أما إخفاء الوجه فله علاقة بالأخلاق العامة .. فنحن فى مجتمع قبل .. ولا تستطيع الفتاة أن تقف أمام مصور ولا يوافق أهلها . ولا يستطيع للمدرس أن يرغمها على ذلك ، بل إن ناظر إحدى المدارس احتاج إلى أن نتأذن له من الوزارة لكى تلتقط بعض صور للفتيات أثناء جلوسهن فى الفصل :

سألت إحدى الفتيات الصغيرات : أنا لست جزائريا فمن أى البلاد العربية أنا ؟ فقالت بسرعة : من مصر أو لبنان ؟ قلت : لماذا ؟

قالت : لأنك تنظر إلى الفتيات ذهابا وإيابا !

وضحكنا نحن الثلاثة - الممثلة ومدير العلاقات العامة ونائب المحافظ وأربعة من المدرسين - فقد وقفنا ننظر لبعض الوجوه الجميلة فى الملابس الثقيلة لكى نلتقط لها بعض الصور ! ..

اتقوا الله

- من السهل جدا إرضاء السائح ، ومن السهل جلاء إغضابه .. فهو مسافر مستمجل .. وليس فى صدره متسع للبحث عن أعداء للبلاد التى يزورها ، لأن لديه إحساسا بأنه جاء من آخر الدنيا إلى مصر ، وأنه فضلها على بلاد أخرى . وأنه يستحق الشكر من مصر والمصريين لهذا السبب .. ثم إنه جاء إلى مصر ومعه

« فلوس » ، وهذه الفلوس نحن محتاجون إليها . . وهو يعلم - بضرورة مبالغ فيها جدا - أننا في حاجة إلى هذه الفلوس ، أى أننا فقراء !! وكذلك عنده إحساس بأنه جاء يتخذنا ، وهو شعور كرهه ومؤلم لكل مصرى ، -لأنه ليس صحيحا- . فلان نحن فقراء إلى هذه الدرجة ، ولا هو غنى إلى هذه الدرجة التى يصورها . . ثم إن السائح لن يلتق بموظفى وزارة السياحة الذين يعرفون - أو يدرسون أو يسمعون أو يتوهمون - أصول معاملة السائح . ولكنه سوف يلتق بمواطنين عاديين ، لهم هموم ومشاكل ليس عندهم وقت ولا صبر للاحتفال بالسائح الذى جاء من آخر الدنيا لكى ينفق نصف أمواله فى هيلتون وشيراتون وونتر بالاس ونيو كترانكت والباقي ينفقه فى خان الخليل ، أما « الفكة » فإنه يلقى بها فى مطار القاهرة ، فهو بهذا الشكل لا ينفق على كل الشعب ، ولا يلتقى بكل الناس . ولكنه يكفيه جدا أن يعامله بعض الناس معاملة حسنة . . ويكفيه جدا أن يتدعاه بائع واحد لكى يلحق مصر واليوم الذى استدرجه أحد إلى زيارتها . . ولذلك فالسائح زائر عنده استعداد هائل لظلم مصر وشعب مصر ، وإن كان لا يظلم تاريخ مصر . فالهرم وأبو الهول وأبو سنبل أقوى وأروع وأبقى من أن يخذل سمعتها إنسان ، أيا كانت الفلوس التى فى جيبه . . فحادث واحد يكفى وشخص واحد يكفى لأن يتأثر السائح لنا أو ضدنا . .

فقد سنوات صر كتاب بعنوان « فلوير فى مصر » وفلوير هو الأديب الفرنسى العظيم جوستاف فلوير الذى زار مصر منذ أكثر من مائة عام . ولقى ما أسعده فى قنا والفيوم ، ومن أجل بعض الرجال وسيدة ولحديقة تركية فى قنا عاد فلوير بأروع وأبقى الذكريات عن مصر والشرق الأوسط . .

ولا أحد يعرف من الذى سيقب به السائحون إذا جاءوا إلى مصر . . ولكن أسهل لنا جميعا لو أننا اتخذنا شعارا واضحا هو : اتقوا الله فى مصر أيا

المصريون - في مصر التي نعرفها ومصر التي يجب أن نعرفها السائح ، وأن تبقى صورتها جميلة في عينيهِ ساحرة في أذنيه ، حلوة على شفتيه لعله يحيى مرة أخرى ويستلج آخرين ، فمُتخص واحد لا يستهان به إذا كان صديقا أو علوا وما أخرجنا إلى الأصدقاء !

قالوا إنها مثل أشجار الصندل تتعطر منها كل فاس تقطعها !

كن عاقلا اليوم ومجنونا غدا - انتهى الحكمة !

إنما تقصر فساتين النساء لتشغلك عن النظر إلى أوجهها !

الموت جهل

في السنوات الماضية أثبتت قضية فلكية : كيف كان جو مدينة فيينا يوم مات الموسيقار موتسارت ؟ قيل إن الجو كان عاصفا وقيل بل كان عاديا . أما سبب السؤال عن الجو فهو أن المؤرخين يريدون أن يعرفوا : هل صحيح أن زوجة موتسارت لم تشارك في جنازته لأنها كانت مريضة وكانت أضعف من احتياها للجو ، أو أنها كانت على خلاف معه ، وأنها كانت عشيقة لرجل آخر ؟ وأثبت العلماء أن الجو كان معتدلا وأنه كان في إمكانها أن تشارك في الجنازة دون أن ترتدئ بالطول من الفراء !

وهذه الأيام يبحث المؤرخون صحة القصة التي رواها ابن القائد ولنجنون الذي هزم نابليون في معركة واترلو . فقد ذهب ابن ولنجنون إلى روسيا عام ١٩١٢ بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على معركة بوزودينو التي هزم فيها نابليون في روسيا . ويقول ابن ولنجنون إن رجلا قابله وقال إنه كان في الثاني عشرة من عمره عندما أمسك حصان نابليون وعاونهُ على أن يعبر النهر . وقد لاحظ هذا الطفل أن

نابليون كانت له لحية . لم يتسع وقته ليحلق لحيته . وأن لحية نابليون كانت بيضاء . وهذا الطفل كان من جورجيا وهى إحدى الجمهوريات التى اشتهرت بالناس الذين تتجاوز أعمارهم المائة . والمؤرخون يتساءلون هل صحيح أن نابليون الذى بلغ من العمر ٤٣ سنة فى ذلك الوقت كانت له لحية بيضاء ، أم أن هذا هو الجليد وخيال الطفل المبور بالقائد العظيم ؟

أما سبب البحث عن صحة هذه الحكاية فلأن بعض الأثريين قد عثروا أخيراً على شعرات من لحية نابليون . وهذه الشعرات بيضاء . أو نصف بيضاء . ويتساءل الأطباء : هل الترنينغ الذى وضعه الإنجليز لنابليون فى طعامه حتى مات فى جزيرة سانت هيلانة فى سنة ١٨٢١ . يؤدى إلى أن يتحول الشعر الأصفر الذهبى إلى أبيض أو نصف أبيض ؟ . أو هل مات نابليون أو قتل .

أذكر أننى رأيت شعرات من لحية نابليون هذه فى متحف بمدينة هافانا بكوبا . ولم تكن هذه الشعرات ذهبية اللون . كانت بنية صفراء . . أو حمراء . وكانت الشعرات رفيعة ناعمة خفيفة . . ولم يدهشنى ذلك . ولكن أدهشنى جداً عندما رأيت ملابس نابليون إنه كان قصير القامة . . لا هو عملاق ولا رأسه فى حجم الجبال ! !

إن هذه القصص ليست هى التى أعجبتنى . ولكن الذى أعجبنى هو روح الجد والجدنية . . أن يكون الإنسان - كل إنسان - جادا فى عمله . وبهذه الروح تتقدم شعوب على شعوب . وتعيش حضارات وتقرض أخرى . والحياة علم . والموت جهل !

الفراغة أولا

كل يوم يكشف العلم الحديث شيئا جديداً سبقنا إليه الفراغة . وليس هذا امتاجاً أو تعصبا قومياً ولكنهم علماء الغرب هم الذين يتعصبون للفراغة . ويقولون : إنه لا جديد تحت الشمس . فكل شيء قد انتهى إليه الفراغة . لهذا عشرين عاماً اكتشف أحد علماء الكيمياء أن التماثيل الذهبية في الكنائس ليست كلها من الذهب الخالص ولكنها تغطت بطبقة ذهبية أو ذات تركيب ذهبي وأن أساس هذا التركيب بعض الأعشاب التي جاءت من الشرق ، أى أن أساس اللون الذهبي عصير أو مسحوق النباتات الشرقية ، وهذه عبارات عامة وليست محددة ! ولكن عندما رفعت اليونسكو معبد « أبو سمبل » اكتشف بعض علماء الكيمياء أن اللون الذهبي الذي تغطت به التماثيل المصرية ليس إلا عجينة رقيقة من مسحوق الحبة الخضراء . فالحبة إذا سحقت وغليت تحولت إلى عجينة . هذه العجينة استعملها الفراغة في الطلاء . فكان لها هذا اللون الأصفر الذهبي الفاتح . ويظهر أن الفراغة كانوا يستخدمون عصير البصل مع مسحوق الحبة . وقد عرف الفراغة هذه الألوان الجميلة الثابتة منذ ألوف السنين . وقبل أن يكشف علماء الغرب ذلك بوقت طويل . فلم يكن الفراغة سفهاء للرجة أن يبددوا كل ثرواتهم الذهبية على الجدران !

وأعود الآن إلى كتاب « الصحة والأعشاب » للطبيب الفرنسي موريس مسيجيه . في هذا الكتاب يتحدثنا عن أسرار العلاج دون حاجة إلى صيغيات

أوحى أطباء أى دون حاجة إلى الكيمياء ، يقول هذا الطبيب الفرنسى إن عبقرية
الفراغة تظهر فى أشياء كثيرة ولكن أهمها : الثوم وعسل النحل . فقد استخدم
الفراغة الثوم فى كثير من الأطعمة . والطبيب الفرنسى يقول إنه لا يوجد مرض
لا يعالجه الثوم مسحوقا أو سليا . . . فالدكتور مسيجه يقول إن كل الحمات
الساحنة لليلين أو القدمين أو المؤخرة أو المقدمة لابد أن يوضع فيها مسحوق الثوم
ضمن مساحيق نباتات أخرى . . وأن الإنسان فى أى مكان لو عرف مزايا الثوم
الذى يضعه فى الطعام أو يخلطه على الرق دون أن يضعه فى الماء المغلى لامتألت
جيوب الناس بالثوم ولأصبح يساوى وزنه ذهباً !

ويقول الدكتور مسيجه أيضاً إنه شخصياً لا يحب عسل النحل . ولكن ما من
مرة استخدم عسل النحل مرهما للجروح ودهاناً للبشرة أو للعين أو طعاماً أو للتخلى
بعد الطعام إلا كانت النتيجة مؤكدة . .

ويقول إن بعض الحضارات القديمة قد عرفت مزايا البصل والخس والفجل .
ومن المؤكد أنها مفيدة للأمعاء والمعدة وضغط الدم والبشرة ، والتنفس . ولكن
لا يوجد نبات فى الدنيا يفوق عظمة الثوم إذا كان نثاً . وكل الأطعمة الطازجة هى
الأطعمة المفيدة .

ولكن يبدو أن هذه الخضروات والفواكه قد أصبحت مسمومة . فالمبيدات
الحشرية فى كل مكان . . فى الماء والهواء . وقد تسرب جزء كبير منها إلى هذه
المأكولات . ولكن عناية الله قد جعلت هذه النباتات تقاوم السموم . . كما جعلت
الجسم الإنسانى أكثر تشبهاً بها وبالتالي أقل تأثراً . .

ويقول : مهما كانت الخضروات والفواكه مسمومة ، فإنها أقل ضرراً من كل
ما تحتوى عليه الصيدليات من عقاقير أتجها الإنسان فى ظروف صحية نقية تماماً .
وإذا لم يعجبك هذا الكلام وضاعت نفسك وأحصابك به ، فمعك حق . .

وحق لا تنكد على نفسك طول اليوم . ابتلع بعض الثوم النسيء تسرح أعصابك
وتهدأ معدتك وتفتح شهيتك للحضروات وفواكه أخرى .

قارة غرقت . .

من المؤكد أنه عاشت على هذه الأرض حضارات قديمة من أماكن مختلفة . .
ولأسباب غير معروفة الآن اختفت هذه الحضارات . فالأرض على صلة
بالكواكب الأخرى من ملايين السنين . والإنسان ليس هو الكائن الوحيد العاقل
في هذا الكون . هذه حقيقة علمية وليس هو أعدل العقلاء في هذا الكون . . هذه
حقيقة علمية . والعلماء يسجلون موجات صوتية ليجيء من أماكن تبعد عنا ملايين
السنين الضوئية . وهذه الموجات تدل على أن هناك قوى هائلة مولدة لهذه الموجات
وقادرة على تعديل مسارها . وهذا لا يتيسر إلا لكائنات متفوقة التفكير . وليس
بعيدا عن المنطق أن تتصل هذه الحضارات القديمة والمعاصرة والتي ترسل إلينا
أطباقا طائرة ، بالحضارة الإنسانية في مئات الألوف في السنين القادمة الماضية أو
ملايين السنين القادمة .

وعلى سطح الأرض آثار في أماكن كثيرة تدل على هذا الاتصال . هذه حقيقة
علمية مؤكدة . والعلماء من الشرق والغرب يدرسون الآن : كيف تتصل بهذه
الكواكب البعيدة وتؤكد لسكانها أننا نريد الاتصال بهم أو تؤكد لهم أننا هنا وأنها
نريد أن نعرف ماذا هناك .

ومن ألوف السنين يتحدث العلماء والمؤرخون عن قارة أو قارات كانت هناك
ثم اختفت تحت الماء . أول من أشار إلى ذلك فيلسوف الإغريق أفلاطون . أشار
إلى ذلك مرتين في كتابين من كتبه ، تحدث عن الحياة الفاضلة في هذه القارة وعن

الزراعة والفاكهة والصناعة والعدل والمواصلات . . ولم يكن أفلاطون يروى قصته وإنما يؤكد حقيقة تاريخية . واختلف العلماء في مكان هذه القارة قالوا تحت البحر الذى يفصل بين اليونان وتركيا . وقالوا جنوب جزر اليونان وقالوا في المحيط الأطلسى أو الأطلنطى . . ونظرية تقول إن قارة أطلانطس كانت فوق الصحراء الغربية جنوب ليبيا وتونس والجزائر . . وهناك ألوف الأدلة النباتية والحيوانية والفلكلورية بين أوروبا وأمريكا وكلها تدل على وجود هذه القارة واختفائها وفي التاريخ الفرعونى وفي حكايات الكهنة وفي التاريخ الذى سجله هيودوت أن الفراعنة حدثوه عن أناس نبلاء عادوا من الغرب . وأنهم من منالة زرقاء وأنهم مختلفون عن سكان هذه الأرض . . والغرب هو قارة أطلانطس .

ومنذ ذلك الوقت وعلماء الجغرافيا والفلك والبحار والنبات والحيوان يبحثون عن هذه القارة وفي الأيام الأخيرة أعلن عدد من العلماء أنهم وجدوها . . وقبل ذلك بمشرات الستين أعلن العلماء أنهم وجدوها . وهذا يدل على أنهم يبحثون عنها ويعلمون بأن يجدوها . وسارع وتسرع عدد من العلماء المصريين وقالوا إن العلماء لم يجدوها وإنما عثوا على بقايا مدن غارقة بسبب الزلازل والبراكين . . أو أن المذى حدث هو نوع من « الانزلاق القارى » - أى انزلاق قارة بعيدا عن قارة أخرى - ففرقت بعض المدن على الشواطئ . . ومن يلقى ربما وجدنا تقييما للمحدث على أرضنا في كواكب أخرى . . في المريخ . . أو تحت سطح القمر الذى هو تابع لكوكب الأرض . ولا شك أن القمر هو أقرب المحطات الفضائية بين الأرض والكواكب الأخرى - ربما .

الحواس عاجزة

عقلك على قدك - يمكن أن تقولها لطفلك ولأكبر مفكر في العالم . فالعقل الإنسانى لا يدرك إلا أشياء صغيرة من كل شىء . إنك تستطيع أن تدرك لون ورقة شجرة . . ولكنك بعقلك أو بإحساسك لا تستطيع أن ترى ورقة الشجرة وهى تبكى لأنك فصلتها عن أمها الشجرة . هناك أجهزة فوتوغرافية فى روسيا وأمريكا سجلت ذلك .

إنك تستطيع فقط أن تحرك الملعقة بين الطبق وللك . . ولكن هل استطعت أن تحركها بمجرد النظر إليها . . هل تستطيع أن تحرق ثوبا بمجرد النظر إلى صاحبه - فى أمريكا ظهر أناس مندم هذه الموهبة الخاصة . .

أنت تقرأ هذه الكلمات وأنت مفتوح العينين . . ولكن أناسا فى روسيا وأمريكا يقرءون هذه السطور بأصابع أرجلهم أو يقرءون هذه الكلمات بأصابع أيديهم . . بشرط أن تكون قد وضعت متديلا على أعينهم ، وأن تكون قد وضعت لوحا من الزجاج على هذه الصحيفة .

أنت ترائى جالسا أو واقفا . . ولكن لا تستطيع أن ترائى بعد أن غادرت هذا المكان ولا أن تعرف بالضبط ما الذى فعلته قبل أن أخرج . ولكن أناسا سجلتهم المعامل والأجهزة الدقيقة قادرون على أن يصنعوا لك هذا كله بمجرد النظر إلى المكان الذى كنت أجلس فيه . .

معنى ذلك !

معناه أن حواسنا العادية غير قادرة على معرفة أشياء كثيرة . فهذه الإحساسات قاصرة عاجزة . ولكن هناك بعض الناس عندهم موهبة أو شفاقة في عيونهم أو آذانهم أو أصابعهم أو عقولهم ، قادرون على أن يروا ما لا نرى وما لا نسمع وما لا نفهم . . هناك أناس قادرون على أن ينقلوا أفكارهم إلى غيرهم دون كلام . وأن ينقلوا أفكارهم إلى غيرهم على مسافة ألف كيلو متر . . إن أحد رواد الفضاء الأمريكي كان يقرأ أفكار أحد زملائه في قاعدة الفضاء ويحرك قلمه كما كان يفعل صديقه على الأرض . . كأنه يراه !

إن عددا من الناس يؤكدون أنهم يسمعون أصواتا من الفضاء الخارجى تقول لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا . . وتقول لهم : إن فلانا مات قبل أن يعرف كل الناس . . وأنه في الطريق إليك ولم يكن أحد يتوقع ذلك .

ما معنى هذا كله ؟

معناه أن العلم الحديث يريد أن يمشى وراء هؤلاء وأن يحلل ويحلل لعله أن يبتدى إلى تعميق وتعظيم القنرات الإنسانية عند كل الناس . . أو عند بقية الناس . . أو يحدد طريقه للاتصال بعالم آخر وراء الحس . . موجود فعلا . هذا العالم اسمه عالم ما وراء الحس ، أو ما بعد الحس . . عالم الروح . . أو الأرواح . . إن الذى يقول ذلك ويدعو إليه ليست الشعوب التى ماتزال تستخدم الشادوف فى الرى والحمار فى المواصلات والأحجية فى النوا .

إنها نفس الشعوب التى دارت حول القمر وزلت فوقه ، وتوجه بأعلامها وأعلامها إلى المريخ والزهرة - إنها شعوب تقدمت علينا مئات السنين !

ويوم أصدرت كتابي «أرواح وأشباح» قيل إنها ولعة فخمة في عالم التخريف . . مع أنني انتقيت ولقيت من «سوبر ماركت» ضخمة فخم تديره كبرى دول العالم : روسيا وأمريكا !

اللغة الفخرية

لا أعرف من الذى ألومه . . ولكن من المؤكد أننا أمام ظاهرة تدل على سوء الفهم . . ولا أقول الجهل . .

مثلا : أذكر أنه فى عام ٧٥ عندما منحت جامعة القاهرة الرئيس الفرنسى الدكتوراه الفخرية أتوا له بروب جامعى لكى يضعه الرجل على كتفيه . ولكن الرجل اعتذر . . ولم يهتم الناس سبب هذا الرفض . . فليس من المعقول أنه قد رفض الروب الجامعى أو الشهادة الفخرية . ولكن لابد من سبب . وهذا السبب لم يولد فى نفس اللحظة . وإنما هو سبب تقليدى - أى يتعلق بالتقاليد الجامعية التى تحتم أن يرتدى الروب كل أستاذ جامعى . كما يرتدى ملابس رجال هذه المرحمة المعروفة . فقط رجال الدين . ولكن أحدا لم ينشر تفسيرا لهذا المشهد الذى اندهش له الناس عندما رأوه على شاشة التليفزيون . فكيف يحدث ذلك وعندنا كثيرون تعلموا فى فرنسا وتخرجوا فى السوربون ؟ والجواب : أنهم قد نسوا هذه التقاليد ومعها اللغة الفرنسية أيضا !

ملحوظة أخرى : وهى الدكتوراه الفخرية التى توسعت فى منحها لأناس كثيرين بلا مناسبات معقولة أو مقنعة . ومن العجب أن الذين يعطون الدكتوراه الفخرية قد تعلموا أيضا فى الخارج . وكما هى العادة قد نسوا التقاليد الجامعية ومعها أيضا النطق الصحيح للغات التى تعلموها أو تعلموا بها .

لن المعروف عالميا : أن الدكتوراه الفخرية ليست لقباً علمياً - مرة أخرى :

ليست إقبيا عليا . أى لا يصح مطلقا أن يقال د . توفيق الحكيم أو د . عبد الوهاب . . لأن هذا تهريج وجعل !

إننى أعرف صديقا أعطيت له الدكتوراه الفخرية فأعطاهما لأحد الأطفال يلعب بها . . وما زال الطفل كلما احتاج إلى اللعب أخرجهما من دولابه الصغير . وقد هانت هذه « النحية » الأدبية على صاحبها عندما قامت أجهزة الإعلام بهذا التهريج الجاهل أو الجهل التهريجي فوضعت حرف : د . . أمام الذين منحت لهم . وإذا كان التهريج قد ارتفع إلى هذا المستوى الجامعي فأين نجد الجدية الجامعية . . هل هو التهريج الذى ارتفع مستواه أو هى الجامعة التى انحط مستواها ؟ .

وإذا كان الذين يعلموننا الذى تعلموه ، لما الذى بقى فيهم أو عندهم لكى ينقلوه إلى الآخرين . . وإذا كان الجامعيون ليسوا جامعيين ، فأين نجد التقاليد والأصول والحرص عليها واحترامها . . واحترامهم بعد ذلك .

الخدمة العامة

لم يعد هناك شك فى أن « الخدمة العامة » هى عبث عام . وفى استطاعتك أن تسأل ألوف الجامعيين الذين يترددون على المؤسسات والهيئات ولا يقومون بأى عمل غير مجرد الذهاب والاياب فلا أفادوا أحدا ولا استفادوا من أى أحد والنتيجة : سنة ضائعة عليهم وعلى مصر . .

فهل هذه السنة : عقوبة عامة لأن هؤلاء الشبان قد تخرجوا فى الكليات والمعاهد ؟ هل هى « فرملة » هؤلاء الشبان عن المزاخرة فى الطريق العام ؟ هل هى إعطاء فرصة لشبان آخرين أن يحملوا لهم مكانا على سلم الأتوبيس والترام والمصاعد

والوقوف على الأرصفة ؟ هل الخدمة العامة مجرد « محلك سر » لأناس كلهم حيوية وشباب والبلد ليست في حاجة إليهم ؟ هل لأن هناك فائضا هائلا من هذه القوى الحيوية وأنا لا نعرف ما الذي يفعله بها ؟ هل لأننا لا نفكر جديا في الاستفادة منهم ؟ هل انتهت كل المشاكل وحللت كل العقدة ولم نعد في حاجة إلى مزيد من الأيدي أو العقول لدفع هذه السفينة « الموحلة » التي هي حياتنا الاجتماعية والاقتصادية ؟

شيء عجيب أن نرى بوضوح أن هذه الخدمة لا هي خلسة خاصة ولا عامة ، مع أننا في حاجة إلى إنجازات حيوية في مصر ، مثلا : أولا- وآخرها وقبل أي شيء آخر في مصر : محور الأمية !

كيف نواجه هذه الحقيقة : إن ٧٠٪ من الذكور أميون و ٩٠٪ من الإناث أميات ، كيف نعرف ذلك ونسكت . كيف لا تكون هي بداية ونهاية أية خدمة عامة يقوم بها شباب مصر من أجل مصر . كيف لا تكون الخدمة العامة التي تستغرق عاما كاملا قادرة على محور أمية مائة أو ألف من المواطنين . . وأن يكون امتحان هؤلاء الأميين ونجاحهم هو المرة المؤكدة لمن يريد أن يخدم مصر . إن هذا الجهل الذي انتشر بين الناس هو للثول عن الكوارث الفادحة في حياتنا . . هو هذا الانفصال والانقسام بين الذين تعلموا وهم أقلية وبين الذين لم يتعلموا وهم أغلبية ساحقة لكل أمل وكل مشروعات وكل مال تنفقه في الشوارع وفي القنوات وفي المزارع وفي العلاج وفي الدفاع . . لو كان هذا الشعب متعلما لنقصت تكاليف كل شيء . . ولما احتجنا إلى هذه الجهود المضنية لإقناع الشعب بأبسط حقائق الحياة الجسدية والنفسية والاجتماعية .

صحيح أن الأمة الجاهلة أسهل لمن يحكمها - ولكن هذه عبارة قالها سعيد باشا . ولكن سعيد باشا مضى وانقضى . ولم نعد « السهولة » و « الانصياع »

و « الاستسلام » مما يشرف الحاكم والمحكوم . فقد دفعت مصر غالبا جدا لأن الأغلبية قالت : نعم للظالم وقالت نعم للجبار . .

والحضارة ليست أن يختار الإنسان بين أن يقول : نعم ، وإن يقول : لا ، ولكن أن يقول نعم لسبب ما وأن يقول لا لسبب آخر . . وأن يختار حرا ما يريد لحياته والمستقبله . .

إن مصر - مثلا واحدا - تدفع ملايين الجنيهات كل سنة على عقاقير ليست في حاجة إليها . وسبب ذلك أن الشعب جاهل وأنه يعالج نفسه من المرض بنفسه . . هو الذى يختار من الصيدليات المفتوحة المتاحة كل ما يراه أجنيا ويتلع ولا يهتم ماذا تكون النتيجة . فلا قيد عليه أو على الصيدليات . . وملايين الجنيهات تدفعها للمضادات الحيوية لأنها لم تعد ذات أثر فعال . لماذا ؟ لأن التامس الجاهلة يملئون بها معداتهم وعروقهم بلا سبب طبي سليم . ولا أحد يقول للناس : لا . . فلامهم إرضاء التامس سواء كان ذلك ضارا بهم أو بالدولة .

إن الشعب المتعلم هو الذى يرفض أن تشتري له الدولة بملايين الجنيهات بنادقا ولوزا وجوزا وقر الدين في العيد . لأن هذه كماليات لا تليق بدولة في حالة حرب . . وإذا حاولت الدولة أن تدفع له . فيجب أن يفتح له ويرفض هذا العبث . ولكنه لا يرفض ذلك لأنه جاهل لا يعرف الصالح العام والصالح الخاص . .

ولكن لأن الأغلبية الساحقة جاهلة . . فكل شيء جائز . . حتى خراب مصر من شباب مصر !

عند أصابعه

القليل من المعلومات خطر ، ولكن هل هناك إنسان عنده معلومات كثيرة للدرجة أنها لا تصبح خطرة عليه أو على غيره . .

إننا عادة نبعد الأطفال عن اللعب بالكبريت . إننا نخاف عليهم ونخاف منهم أن يحرقوا أنفسهم وغيرهم . وهذه هي المعلومات القليلة الخطيرة على الطفل وعلى الناس . .

ولكن ما الذى نقوله على الذين يملكون مئات القنابل الذرية وألوف الأسلحة النووية . . إن هذه ليست معلومات قليلة إلى هذه الدرجة . ولكن فى كل مرة يتحدث العالم عن السلام نجىء هذه العبارة : فمن يدرى ربما حدث خطأ . وكان من نتائج هذا الخطأ أن انطلقت القنابل النووية لتدمير جانب من العالم . فيرد الجانب الآخر . . وتتلاشى الحضارة الإنسانية .

أو نجد هذه العبارة : من يدرى ؟ ربما أصدر رجل مجنون قرارا بإبادة الإنسانية كلها !

والمعنى : أن هذه الأسلحة التى هى لغة العلم التطبيق الحديث من الممكن أن يغطى إنسان واحد ليضغط على زرار . وينطلق الموت فى كل اتجاه . .

إذن هو زرار واحد أمام شخص واحد . وقد يكون هذا الشخص مجنوناً . فكيف نترك الدنيا كلها عند أصابع شخص واحد ؟ كيف نترك مصيرنا كله لتزوة واحد من الناس معرض لأن يصاب بالتمب واليأس . أو السكر والعريضة . .

وفى إحدى اللحظات يهوى بيده أو بجسمه على زرار فيقضى على كل ما هو إنسانى
أو حتى على هذه الكرة الأرضية . .

إذن فهذا العلم الغزير ليس يعصمنا من الخطأ . لأننا فى النهاية نضعه فى آيد
قليلة . . ثم فى يد واحدة . فكان هذا العلم الكثير ، كالعلم القليل ، خطير أيضا .
فهل هى كثرة العلم أو قلة العلم التى تجعله خطيرا ؟ هل عدد الكبريت فى يد
طفل مثل القنبلة فى يد جندي . . أو الترساة النووية فى يد الرئيس الأمريكى أو
الرئيس السوفيتى ؟ من المؤكد أن هناك موانع كثيرة قبل أن يتمكن حاكم كبير من
إصدار قرار بإبادة نصف العالم . . ولكن حدث أيضا فى مرات كثيرة أن سقطت
القنابل الذرية دون أن تنفجر . . وحدث كثيرا أن سرقت قنابل وسرقت مواد
مشعة . . وحدث الآن أن دولا متوسطة وصغيرة تتج لحسابها قنابل ذرية دفاعا
عن النفس وبدلك أصبحت أعواد الكبريت فى متناول الصغير والكبير . وربما كان
انتشار أعواد الكبريت هو الذى جعل الخوف منها عاما . وفى نفس الوقت جعل
الشعور العام بالأمان أكثر . . فلم تعد الدول الكبرى وحدها التى تملك الإرهاب
أو فرض القوة بالإرهاب النووى . .

ولكن - مع ذلك - ليس هناك أمان لأحد أو من أحد . . لأنها كانت
المعلومات كثيرة فهى قليلة جدا إذا قورنت بالذى لا نعرفه من أى شىء . . وحتى
إذا كانت المعلومات كثيرة ، فإن القنوس صغيرة . وما يزال الإنسان طفلا يلعب
بالتار . . ولم يتردد الإنسان وهو يخيف غيره أن يحرق نفسه أيضا . . فعلت ذلك كل
الدول . . وقد بما قال شمشون الجبار وهو يهدم المعبد : لينهدم المعبد فوق وفوق
أعدائى أيضا :

وكذلك تفعل جميعا عند الغبط الشخصى ، أو الضيق القدمى !

مبادئ النحو

من واجب جميع اللغة العربية أن يخاف على اللغة العربية . وأن يقومها إذا استطاع . . وهو لا يستطيع أن يقوم لغة الملايين . وإنما يقوم لغة العشرات من الكتاب الذين يؤثرون في الملايين .

ومن المؤكد أن لغتنا العربية ليست قديمة ومن الواجب أن تكون قديمة . فالذى تنشره الصحف مثلا : هو أسهل عبارة يمكن أن نخطب بها ملايين الناس من كل المستويات التعليمية والعلمية . وهى لغة سريعة ولذلك ففى أثناء السرعة تتساقط الأفعال وعلامات الترقيم والإعراب ، ولأننا حريصون على سرعة العبارة ، فإننا (ننحس) الألفاظ التى نراها مناسبة لنا فى الوقت الضيق الذى يتاح لنا أن نكتب أو نترجم فيه . وكثير من المصطلحات العلمية والسياسية نجىء بها وكالات الأنباء ومن الضرورى أن تنقلها الصحف . وتنقلها بسرعة الآلة الكاتبة التى تكتب التى تطبع التى توزع التى يركبها القارئ إلى بيته أو إلى عمله . .

وإذا كانت الصحف تفرص على السرعة ، فإن كل شىء يحاول أن يقلدها أو يجارها ، أو يتفادى خطورتها . . فالذى يتفادى السيارة المسرعة ، يجب أن يكون التصادى نفسه أسرع من السيارة . . وهذا ما يفعله الصحفيون . . ويفعله الإذاعيون ، وأكثرهم صخبون . .

وإذا كانت بعض حيل الإضحاك الفنى أن يتلاعب المحلل بالألفاظ . . وأن يتقل ذلك إلى صغار الناس ، فإن التلاعب سوف يصبح أسلوبا فى الكلام . .

أو الاستحفاك باللغة وقواعدها سوف يصبح من القواعد الجديدة في هدم اللغة
وتحريف اللسان العرب .

إن يجمع اللغة العربية حق في مخاوفه ، ولكنه مبالغ في هذه المخاوف أيضا .
فالناس ليسوا بهذه الدرجة من (السلبية) أو ليسوا عجيبة يشكلها أراجوزات
المسرح أو الإذاعة . . ولكن الناس يرون الأراجوز ويضحكون عليه . . ولكنهم
لا يذهبون إلى أكثر من ذلك ، ويذهبون إلى المسارح ويمزقون من الضحك على
الممثلين . . ويكون هذا المزق نوعا من العلاج والتفريج . . وبعد ذلك يذهب كل
شيء . . تذهب (الألعاب اللفظية) . . تبقى ذكراها فقط . . ويخفى الناس
وجوههم في الصحف التي لا تحرص في المقام الأول على سلامة العبارة - وهذا هو
الخطر الذي يجب أن تنبه إليه فالصحف مدرسة الشعوب . وكتابها يقتدى بهم
الناس . . وليس من العدل أن يلوى ألسنة الملايين لأنه عاجز عن أن يكون قويا .
إن حرصنا على عربيتنا ولغتنا وقوميتنا يحتم علينا جميعا أن نقرأ مبادئ النحو
والصرف ، قبل أن ننشر بين الناس مبادئ هدم النحو والصرف والعروبة .

من اليوم

نشرت صحيفة « التيمس » البريطانية مقالا لأحد الكتاب . وقد جاء في المقال
أنه رد على فلان « الخير » في الشؤون الصحية . . والمقال من أوله لآخره كلام
بالعقل ، صحيح أن الكاتب له وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر هذا « الخير » . .
وذهب الخير إلى القضاء ينهم الصحيفة الكبرى بأنها أهانت عن عمد . وذلك بأنها
نشرت كلمة « الخير » بين قوسين . وفي ذلك مساس به وتعمييض باسمه وسميته كأنه
ليس خيرا . ووقف القضاء إلى جانب الخير . ودافع رئيس التحرير عن نفسه وعن

صحيفته قائلاً : إنه لم يقصد ، ولا أحد ، الإساءة إليه . . وأن الكاتب عندما وضع القوسين حول هذه الكلمة كان يقصد إلى تأكيد هذا المعنى ، ولقد نظر إليه . . ولم يقتنع الخبر ولا المحكمة . . ورفعت الجلسة ليعاود رئيس التحرير الدفاع عن نفسه أو دفع تعويض مالى ضخم !

والإهانة جاءت من أن الرجل خبير بالفعل وعنده مؤهلات علمية تثبت ذلك . . وليس من حق أحد أن يشكك في قيمته أو يعرض بخبرته . ولذلك فالقضاء يقف إلى جواره والرأى العام والصحافة كلها أيضاً !

وهذه هي الأصول والتقاليد والقيم الإنسانية . ولكن أين هذا مما تنشره الصحف عندنا في مصر أوفي العالم العربي . إن الصحف تصف المتهمين بأنهم مجرمون وسفاحون ، قبل أن يصدر القضاء حكمه . إن هذا مستحيل أن يحدث في أية صحف أوربية أو أمريكية . ومن حق المتهم أن يقاضى الصحيفة وأن يكسب ما يشاء من المال تعريضاً عما لحقه . ولو نشرت صحيفة بريطانية أن (المجرم) فلان قد استجوبه القاضي ، ثم حكمت المحكمة بأنه مجرم حقيقى . لوجب على الصحيفة أن تدفع له تعويضاً يصل إلى ملايين الجنيهات - مستحيل أن يحدث ذلك . . ولكن أقول (لو) ! !

ويوم نكتب تاريخ الصحافة أو تاريخ القضاء فإن صفحات كاملة سوف تنشر عن قضايا اتهمت فيها الصحافة أناسا وقفوا أمام القضاء بأنهم لصوص ومهريون ولجارج ذم ثم جاء القضاء فبرأهم . . واكتفى هؤلاء الأبرياء بحكم القضاء ، ولم يقاضوا الصحف - منهى الظلم . .

ويحدث كثيرا أن تنشر الصحف أحكاما خاطئة ، أو معلومات كاذبة عن بعض المواطنين ، ولا تنشر في نفس المكان وبفس المساحة تصحيحا أو اعتذارا عن هذا الخطأ - والصحف لا تنشر رد الاعتبار إلا نادرا جدا ! !

إنها مسألة أخلاق أو أخلاقيات لها قوة القانون . والمسافة بيننا وبين هذه التقاليد الراسخة لحماية أى مواطن من الذين هم أقوى منه . مآثرال بعيدة جدا .

مسح ذاكرة

غلطة ارتكبتها الإذاعة والتلفزيون . هل سبها ضرورة اقتصادية أو أنه إهمال . على كل حال هى غلطة وعيب لا يتكرر . فقد حدث منذ سنوات أن صدر قرار ما من شخص ما بمسح كثير من الأشرطة فى الإذاعة وفى التلفزيون . ومسح الأشرطة إجراء عادى . ولكن الذى يجعله غير عادى أن هناك « مواد » هامة سجلت على هذه الأشرطة . بعض هذه المواد لها قيمة تاريخية . ولذلك يجب أن نحتفظ بها فى مكبات الإذاعة والتلفزيون . تماما كما احتفظنا بأشرطة الشيخ محمد رفعت صاحب الصوت الجميل الجليل . أو كما احتفظنا ببعض المسلسلات الشهيرة مثل ألف ليلة أو بعض التيليات أو المسرحيات أو بعض الأفلام القديمة التى نعرضها من حين إلى آخر . أو بعض المباريات الهامة أو الدولية فى كرة القدم . أو كل الأغاني القديمة .

وقد سمعت حقائق أفزعنى أرجو ألا تكون صحيحة . مثلا سمعت أن تسجيلا لتلفزيونيا مع الأستاذ العقاد قد مسح وأن تسجيلا مع المؤرخ عبد الرحمن الرافى أيضا لم يعد له وجود وأنا أذكر أننى تعبت فى إقناع الرافى بأن يذهب إلى التلفزيون . وبعد ذلك كان الرجل سعيدا جدا بأن يواجه الكاميرات وأن يتحدث .

وكان الرجل طيبا صافيا وظهرت منابع تفكيره الأخلاقية فى حديثه . مما يلقى ضوءا على فلسفته فى تسجيل التاريخ . . وفى تسجيل العقاد . لم يكن الصوت واضحا . ولا كانت مخارج ألفاظ العقاد . ولكنه كان صورة بارزة لشخصية العقاد

وأستاذته وفي نفس الوقت بساطته وتبسطه أيضًا .

وسمعت من يقول لي أن برنامج الأدباء مع طه حسين الذي أعدته من سنوات يذاع في البلاد العربية ويقال أنه أذيع أخيراً في مصر .

وقد كان هذا البرنامج بالذات مشولاً عن قرارات اتخذها الرئيس عبد الناصر غيرت حياة بعض الذين شاركوا فيه . . وفي هذا البرنامج أيضًا صورة تذكارية مع عميد الأدب مع أبناء وخلفائه من أدباء مصر . . وهي ككل الصور التذكارية ليست متناصفة الأطراف أو العناصر ولكنها صورة حتى لا ينساه أو ينساها الناس ! ولا أعرف بالضبط كم عدد الأشرطة التي تم محوها . . ولكن عملية المحو هذه هي « محو الذاكرة الإذاعة والتلفزيون » . . وأنا أخشى علينا من النسيان . فهو البثر العميقة القاسية التي تتفادى كل الشعوب أن تقع فيها فلا يكون لها ماض ولا تكون لها علامات طريق . .

وأرجو ألا يتكررها حدث ، أيا كان سبب ذلك . . فيكون فقدان الذاكرة هدمًا لنا بأيدينا وتبديدًا لأموال وجهود يجب أن تبقى لنا ، وتبقى بنا !

إرضائهم صعب

من هو القارئ ؟ من هو السامع للإذاعة وللتلفزيون ؟ . . إنه واحد لا نعرفه ، ولا نعرف بالضبط طبقته ولا تكوينه النفسي ولا العقلي ولا مزاجه الشخصي . ولكنه مواطن من حقه أن يستمتع وأن يستفيد .

وأساس الخلاف بين المسؤولين عن الرأي العام وتكوينه هو : المتعة والفائدة ؟ ما هي نسبة للمتعة إلى الفائدة . كم مساحة للموضوعات الممتعة والموضوعات المفيدة علمياً وتاريخياً . أو كيف يمكن أن يتحقق الشيء المثالي للمتعة والمفيد معاً .

لا بد أن يدخل في حساب كل من يواجه الناس أنهم متعبون . . عملوا حتى
أرهقهم الحياة ويريدون أن يستريحوا في بيوتهم وأن نقدم لهم ما يريحهم وينعشهم
ويفيدهم ويعينهم على دنياهم . . اليوم وغدا . .

والقارئ والمترجم كلاهما يمل بسرعة ولذلك يجب أن ندركه قبل أن يتأهب
وتتهد إليه إلى شيء آخر . ولهذا فالمادة التي نقدمها له يجب أن تكون سريعة
وواعدة : أي أنها تعد به شيء يرضيه فوراً ولذلك يجب أن تكون الموضوعات
قصيرة . . سريعة . . متنوعة .

ولأننا لا نعرف بالضبط من هو الذي يقرأ أو الذي يتفرج . . ولأننا لا نعرف
مزاجه فإننا يجب أن نقدم كل ما نستطيع . وهو مرة يحد ما يريد ومرة لا يحد
ولكننا نحاول دائماً أن نقدم ما نتصور أنه محتاج إليه . ونحن نعتد على قاعدة
واحدة هي : أننا نخلصون . . وأتأمل . . ولا بد أن يلتقي كل الناس عندما تصبح
ثقافتهم متقاربة . وكل أجهزة الإعلام تحاول أن تخلق الثقافة المتقاربة بين الناس .
وبذلك يسهل التفاهم والتخاطب والقناعة في النهاية . وهناك فرق كبير بين خلق
ثقافات متقاربة وبين جعلها ثقافة واحدة ، وهذا هو الإرهاب الفكري . أو
الاستبداد العقلي عندما نلغي التنوع في عقول الناس ونصفيها في قالب واحد . كأن
الناس لهم عقل واحد وملايين الأجساد . . وهذا لن يكون . . فالناس مختلفون .
وإذا أحسن الناس أنهم متشابهون في ملايسهم وفي أمزجتهم ، فإنهم يشعرون ويمثلون
ويعتمدون ويحرصون على الاختلاف والتنافر والعناد على الوجش الإعلامي الذي
جعلهم حيواناً واحداً !

ولهذا كان إرضاء الناس جميعاً شيئاً صعباً . فالذي يعجب هذا لا يعجبك
أنت . . والذي يعجبك بعض الوقت لا يعجب غيرك طول الوقت . . ومحاولة
إرضاء كل الناس ، جعل الصحف والإذاعة والتلفزيون توجه إلى كل الناس .

والإذاعة أكثر تنوعاً من التلفزيون . . . والتلفزيون تكوينه الفني محدود : قناة أو قناتان . ولكن بعد سنوات سوف يكون تلفزيون البلاد الشقيقة والمعادية في متناول كل الناس . سوف يشاهد الناس في مصر براصيح إسرائيل وإيطاليا وفرنسا وأمريكا وبريطانيا وسوف يرتبط العالم كله بالتلستار . . هنا فقط يكون التلفزيون متنوعاً مثل الإذاعات المحلية والعالمية . . وهذا التقارب يحتم علينا أن نجهد براجمنا وإذاعتنا وصحفنا لأن المواطن المصرى واقع تحت إغراء شديد من كل جهة . وهذا هو (البعيج) الذى يخيفنا من المستقبل . . ولكنه من الوجوب أن نخاف حتى نقلر على أن نطمئن الناس !

الردة أصح . .

الذى نسميه (الغريزة) عند الحيوانات هو فى الحقيقة (حكمة الله) قد أودعها هذه الكائنات التى لا تستطيع أن تفكر . تماماً كما نضع نحن المعلومات الصميمة فى العقل الالكترونى ثم نطلبها عندما نحتاج إليها . فالعقل الالكترونى لا يفكر دائماً وإنما يعيد إلينا ما أودعناه فيه . . وهذه الغريزة هى فلسفة الكون قد تركها الله فى رهوس الحيوانات والنباتات :

مثلاً : لجند الكنكوت الصغير عندما يخرج من البيضة يتجه إلى الأرض ينقر ويتلع بعض الرمال أو بعض الملح على الجدران . . والتفسير لذلك هو أن هذا الحيوان يبحث غريزيا عن بعض الملح . . ويبحث فى نفس الوقت عن مادة خشنة لمعدته وأمعائه .

إن طبيب الأطفال يطلب من الأم أن تضع بعض (الردة) - وهى قشور القمح والشعير والذرة فى طعام الطفل الصغير . وهى ضرورة للحركة فى داخل

الأمعاء . وهى فى نفس الوقت لجعل عند الطفل الصغير نوعا من اللين . .
ويذهب الأطباء الباطنيون إلى أبعد من ذلك . فالمصران الأعور والتهابه
وضرورة استئصاله ، هذا مرض جديد فلم يكن ذلك معروفا من ألوف السنين
والسجلات الطبية تحدثت عن أول عملية مضران أعور أجريت كانت فى بريطانيا
سنة ١٨٤٠ . وقبل هذه السنة لانعرف أحدا أجراها أو تحدثت عن هذه الزائدة
الدودية . ولكن لماذا ؟

إنه نفس السبب . نحن عادة نتناول الأطعمة الناعمة اللينة ، الدقيق الناعم
والحلوى السكرية المصنوعة من الدقيق والسمن ونشرب وراءها الكثير من الماء .
وتكون النتيجة أن الطعام يتحول فى الأمعاء إلى عجينة متماسكة تندفع بصعوبة فى
داخل الأمعاء ذات الحركة الدودية . وكثيرا ما كان الضغط على الطعام بالقرب
من الزائدة الدودية فتنفذ إليها ، ومنها تتكون أنواع من البكتريا . وقد يؤدى ذلك
إلى إدمائها . . وبقاء هذه البكتريا طويلا يصيب المصارين بالقرحة . . أو يؤدى إلى
إفساد فى نمو الخلايا أو خلل فى نموها . .

ولو أحصينا عدد العمليات التى أجريت للزائدة الدودية فى الخمسين عاما
الماضية لبلغت الملايين . . ونفس السبب : أن الطعام يخلو من (الردة) . . هذه
الردة التى تجعل الطعام أقل تماسكا وفى نفس الوقت تعاون على حركته فى
الأمعاء . . فإذا سهلت الحركة لم يصب أحد بالإمساك . . وإنما إذا تماسكت
العجينة وانحسرت وتكثفت كان من الطبيعى أن يشكو الإنسان من الإمساك ومن
ضرورة إزالة الزائدة الدودية .

ولأن الردة ليست ميمورة بشكلها الذى لا يؤذى جدران المعدة والأمعاء ،
فقد أقلحت شركات الأغذية فى تحويل الردة الخشنة إلى ردة ناعمة . . ويمكن لأى
إنسان أن يأكلها خبزا أو يضعها فى الشوربة . . بمعدل عشر ملاعق طعام يوميا . .

وإذا وجلت بعض الناس يفضلون الوجه الخشن من الرغيف ، فهذا هو الأصح . .

ومن حكم الشعوب البدائية أن المريض الذى يشكو من الإسهال ينصحه حكم القيلة بأن يسف بعض التراب الجاف - أى يعمل تماما كالكتكوت الصغير . وأنت حر تماما فى أن تكون كتكوتا تسف التراب ، أو إنسانا يسف الردة من أجل أمعائك ومعدتك !

الحكم لقمان . .

من الأمثال الشعبية واحد يقول : من عاش بالحكمة عاش بالمرض . أى أن الذى يستخدم الحكمة - أى الطب - فى كل متاعبه فإنه سيقطل طول عمره مريضا . لأن العقاقير تضعف مقاومة الجسم للأمراض . أو بعبارة أخرى : أن هذه العقاقير تشبه القوات المرتقة التى تدافع عن الجسم . فى حين أن الجسم به قوات مدخرة فى إمكانها أن تدافع وأن تصد وأن ترد العدوان - هذا إذا أعطينا للجسم الإنسانى هذه الفرصة .

ولمحن أطفال كانت أمهاتنا يتركنا نقع على الأرض . ويتركنا نبكى ونصرخ . . ويرين فى ذلك فرصة لنكتسب قوة الجبال الصخرية . واتساع الصدر ومثابة العضلات . .

ولكن عندما تكبر فإننا نسارع برد العدوان بالعقاقير . . وتتراكم رواسب هذه العقاقير فى الكليتين أو فى الدم . . أو فى المعدة . . ويمضى الوقت ولمحن لا نعطى للجسم هذه الفرصة للدفاع عنا . . حتى يحىء وقت . ويكون ذلك متأخرا جدا . .

تدفع فيه الحساب الغالى . . أما هذا الحساب فهو أن هذه العقاقير لم تعد تجدى .
وأنه من الأفضل أن نترك الجسم يدافع عن نفسه . . ولكن الجسم يكون عاجزا
تماماً عن عمل شيء !

والعقاقير تشبه الصابون : فالصابون ينظف الملابس ولكنه في نفس الوقت
يذيب خيوطها !

والانجاء الحديث في الطب الآن هو الإقلال من استخدام المستحضرات
الكيميائية لأنها سامة إلى حد ما . ثم سامة بعد ذلك . وليس هذا الانجاء معاديا
لصناعة الأدوية أو ليس انجاءها اقتصاديا وإنما هو انجاء طبي صميم . وينصح
الأطباء بالعودة إلى الأعشاب أو الوصفات البلدية . أو المنتجات الطبيعية ، من
الفواكه والخضراوات .

ولا يوجد عقار واحد ليس له أصل نباتي . أوليس مستخرجا من نخل
الأعشاب بما في ذلك الأسبرين الذى لا يزال ساحر الآلام في العالم .
وقد كنت أتحدث مع الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة . أوعلى الأصح
كان هو الذى يتحدث ، وهو رجل فصيح ، عن الأعشاب الطبية في مصر .
وكيف أن الله قد أعطى مصر الكثير منها . وأنتا نستطيع أن نكسب مئات الملايين
من زراعة هذه الأعشاب في بلادنا والاستفادة والاتجار فيها أيضا . بعض هذه
الأعشاب إذا استخلصناها فإن الجرام الواحد يساوى مليون دولار - هو الذى
يقول ولا بد أنه على يقين من هذا الرقم !

وبدلا من أن يذهب الإنسان إلى الصيدلية عليه أن يذهب إلى محال
العطارين ويسأل البائع الذى ليس بصيدليا ولا طبيا . وما يوصى به العطار ، هو
بالضبط ما أوصى به الحكيم لقمان من ألوف السنين - وهو شفاء من كل داء !

قالوا . . .

تقديرك لنفسك لن ينافيك فيه أحد !

أخطأنا سببها : نحن تفكر فيما يجب أن نعلم به ، ونسلم بما يجب أن نفكر فيه !
القانون والعدل خلقهما الله معا وباعد بينهما الإنسان .

معدة رمضان

ما هذا الذي نجده أمانا في رمضان المعظم - أقصد هذا الذي نأكله بعد أذان

المغرب ؟

نشرب الشاي الساخن . وبعد ذلك نشرب الماء للثلج . . نأكل الطورشي
الذي هو مزيج من الملح والشطة والعفونة والألياف والذي يدعوك إلى مزيد من
الماء المثلج . . ثم للموخية الساخنة التي لا طعم لها إلا إذا أكلناها بالخبز المنفوخ .
ووراءها بعض الماء المثلج لأن الطورشي قد انتفش في المعدة وبدأ يتحرك في اتجاه
فتحة المعدة . ومع الموخية الأرز . فالأرز ضروري جدا حتى لا نسمع صوت
الموخية والماء والشورية ونحن نهتر يمينا وشمالا . والأرز يقوم بردم المعدة . أو تحويلها
إلى عجيبة متماسكة نسبيا . وبعد ذلك لا بد من الفول الملمس . إنه يحلو في
رمضان . فلا رمضان بلا فول بالزيت والليمون والحل . . أو بالزبدة والبيض . .
أو بالزبدة والبيض واللحمة المفرومة . . أو الفول بالفحم . لأن الفحم يجعل للفول
طعم اللحم المشوي .

وبعد دقائق معدودات يكون الصائم قد شبع . ولم يستغرق الإبطار ثلاث
دقائق . ونجىء الكنافة بعجينها ومكرها وسمنها . وهي أيضا مثل الطورشي لا بد من
تخفيف حدتها بالماء المثلج . مزيدا من الماء ومن عادات الصائمين في رمضان أن

يشربوا الشاي بالتنوع الأخضر.. وبعضهم يفضل أن يأكل القطايف مع الشاي.. أو الكعك مع الشاي.. إنها عادة قديمة. ورمضان كله عادات وتقاليد..

إذا لم تكن قد تصورت ما فعلته أنت أو أى صائم وإذا كانت عقليتك علمية تجريبية ففي استطاعتك أن تأتى بحلة.. وأن تفرغ فيها ما يعادل كل ما أكلته وشرته.. ثم هز هذه الحلة.. وانظر إلى هذه الكميات الهائلة التى دخلت معدتك.. فإذا نظرت ودققت النظر فقل لى : ما الذى تصلح له أنت بعد كل هذا الذى حشرته فى معدتك ؟ كيف يمكن أن تؤدى أى عمل..

ليس من الضروري أن يجيب أحد عن هذا السؤال.. فالمفروض أن تشغل عن معدتك الآن.. واعط أذنك وعينك للإذاعة والتلفزيون.. واضحك.. وسوف يقوم الضحك بهز معدتك وتقليب ما فيها - هذه هى الحكمة وراء برامج رمضان ! والضحك هو أرخص من أقراص منع الحموضة التى اختفت من الصيدليات وجوب تقلصات المصران القليل.. إلخ..

وكل سنة وأنت تشكو الجوع قبل المدفع وتشكو التخممة بعلمه بنقائى.. وكل سنة وأنت تعترف أن الاعتدال هو أحسن دواء، ولكنك لن تفعل ذلك !

قالوا :

لى أنعطائى : ولكن ليس الاعتراف بالخطأ واحد منها !

الضعيف له سلاح واحد : أنعطاء الأقوياء !

عندما رأت حواء صورتها فى الماء ، اتهمت آدم بأنه يعرف امرأة أخرى !

لست طبيب نفسك

أنا واحد من الملايين الكسالى الذين لا يذهبون إلى الأطباء كلما أحسوا بوجع في مكان ما . وليس بسبب أنني لا أعرف الطريق إليهم ، فأنا أعرف منهم الكثيرين المتأزين والحمد لله . ولكن سبب ذلك أن أوجاعي قد عرفها الأطباء وشخصوا لها الدواء . ولذلك فأنا أقوم بتكرير الدواء من تلقاء نفسى . وهذه غلطة لأن الأوجاع تتشابه في الجسم الإنسانى ، ولكن أسبابها تختلف . بل إن الأعراض تتشابه أيضاً ، ولكن مصادر الألم تختلف . وغلطة أخرى أن الدواء إذا وصفه الطبيب ، فإن هذا الدواء يفقد مفعوله بعد تناوله فترة طويلة . .

هذا إذا كان الإنسان يتناول دواء واحداً ، ولكن من النادر أن يحدث ذلك . فالإنسان يتناول أكثر من عقار في وقت واحد ولأسباب مختلفة كأن يصاب الإنسان بصداع وإمساك وأرق وحموضة . ومن الممكن أن يكون ذلك كله بسبب الإمساك . ومن الممكن أن يكون بسبب الأرق وقلة النوم ، ولكن من الذى يستطيع أن يفصل في هذه الأعراض . لابد أن يكون الطبيب ، أو تكون أنت في غياب الطبيب ، أو بسبب حرصك على أن تصرف من تلقاء نفسك كأنك طبيب ، أو كأنه لا يوجد طبيب على الطرف الآخر من التليفون .

وفي يوم قررت ألا أتناول أى دواء ، مهما كانت الأسباب وسوف أجرب كيف يكون الإنسان طبيعياً . أى يعتمد على قواه الذاتية . فالمعدة يجب أن تدبر حالها والدماغ يجب أن يعتدل فوق الكتفين . ولن أعطى أية غدة من الغدد عكازاً تتوكأ

عليه ، من أجل القيام بوظيفتها ومساندة بقية الغدد الأخرى .
وأحسست كأننى كنت أمشى على عكاز ، وألقيت بالعكاز ، وكأننى كنت
أضع منظارا طبيا ، وكسرت المنظار ، - وكأننى كنت أضع سماعات على أذنى
ونخلت السماعات . . وأنا الآن مثل الطائرة الشراعية اعتمد على تيارات الهواء . .
ولست طائرة عادية لها محركات وجناحان وذيل وطاقم من الطيارين
والمساعدين . . فجأة وجدت نفسى وحدى ، مجردا من أية مساعدة خارجية .
لماذا حدث !

لاشئ قد حدث . لاشئ إلا خوفى من أن يحدث أى شئ . ولم يقع أى
شئ . وظللت أرقب نفسى لاشئ . وأتوقع أن يحدث شئ ما فى مكان ما لسبب
ما . ولم يحدث فى العين أو فى الأذن أو فى المعدة شئ ولمدت يدي أقرأ وأكتب .
وأروح وأجى . لاشئ .

واسترحت إلى حالى وقلت : كل شئ طيبى . وأحسست بالمعادة لما
حدث . ولمدت يدي لا شعوريا إلى بعض الأقراص وابتلعتها . ونسيت فى غمرة
الفرح هذه أن هذه التجربة لم تستغرق سوى ساعة واحدة .
ولكن أهم ما خرجت به هو : إن حلم تناول الأدوية عادة سيئة ، وأن تناولها
عادة أسوأ ؟

الضبط نفسك

بمناسبة وجود الذكوزة أنا أعلان فى القاهرة يتحدث الناس من الصحة ومن
طول العمر . ويختلف الناس فى الأسباب . أسهل الأسباب أن يقال أن الأعمار بيد
الله ولكن الناس لا يتوقفون عند هذا السبب . وإنما يبحثون عن الأدوية التى تجعل
الإنسان أصح وأطول عمرا .

والناس في ذلك مدارس متعددة الضخم . أناس يرون أن الصحة كالمرض سببها الأكل والشرب . فحياة الإنسان وموته في معدته . والذي يأكل كثيرا يمرض كثيرا . والذي يتقى الطعام القليل يصبح أحسن جسما وأهدأ نفسا . وأناس يقولون الحالة النفسية هي السبب . والطعام له أثر على الحالة النفسية . أو الحالة النفسية لها أثر على الطعام . وصاحب المزاج الهادئ هو صاحب المعدة السليمة . وصاحب الأعصاب الحادة هو صاحب المعدة المريضة وقرحة المعدة وقرحة الأمعاء والضغط والانبساط والذبح والجلطة .

وأناس يقولون : إن المرض معناه اختلال في نظام الجسم . ولذلك فالنظام هو صحة الجسم . فالذي له مواعيد معروفة في الأكل والشرب والنوم والعمل هو أميل الناس إلى الصحة الجيدة . وأكثر الذين يمرضون تحسن صحتهم لأسباب من بينها أن هذا المريض قد عرف النظام في الأكل والشرب . لأن الدواء يجب أن يؤخذ في مواعيد محددة . فانتظام الأكل هو تنظيم للغدد والإفرازات في الجسم كله . ويكون أن تنظر إلى الرجل عندما يفصل من عمله أو يحال إلى المعاش . إنه يمرض . وأهم أسباب المرض : الاختلال في النظام اليومي لنشاطه النفسي والجسمي .

وأول ما يقوله الطبيب للمريض المرحق نفسيا وجسميا هو أن تكون له ساعات محددة للعمل والراحة من العمل . . يجب أن يكون لجسمه نظام . لأن الجسم الإنساني آلة دقيقة معقدة ، ويجب أن يحكمها النظام والانسجام . . فالجسم آلة . والصحة هي الانسجام العام لكل الوظائف .

واليوجا هي نوع من النظام الشديد للجسم . وفروع من الإنفاق من ملخرات الجسم الإنساني . فالجسم به طاقات لا تعرف كيف نستخدمها . وإنما نحن نسرف في تكديس الطاقات في الجسم ولا ننفق منها . . واليوجا هي تصحيح لكل ما في الجسم من مادة وطاقه معا . ولذلك فالصحة هي اليوجا . .

وأناس يرون أن الإنسان كسول بطبعه . ولذلك يجب أن يتولى العقاقير عملية تنشيط وتجديد الخلايا . فبدلاً من أن يتحرك الإنسان فإنه يتلع العقاقير التي تحرك دمه . . وتجعل خلاياه . أو تساعده على ذلك . . فتقوم هذه العقاقير بما يجب أن يقوم به الإنسان نفسه . . ومن بين هذه العقاقير تلك الأدوية التي ابتكرتها الدكتوراة أنا أصلان وغيرها ، وغيرها كثيرون جداً في كل الصيدليات ومحال العطارة وفي الكلب الشعبية وعلى جدران المقابر الفرعونية . .

ولم يختلف الأطباء على أن أحسن علاج لكل الأمراض هو الاعتدال . أي ضبط النفس . وأصعب شيء أن تضبط رغباتك وتزواتك وانفعالاتك . أي أن تكون متوازناً . ولأننا نعيش في عصر مثير للأعصاب ، وملهب للأعضاء ومحرق للدماغ ، فإن الاعتدال هو أول ضحايا حياتنا الحديثة . . ولذلك قصرت أعمار الناس ، وصوف تقصر بمرور الوقت ، وكلما تقدمنا واقتربنا من الكواكب الأخرى . فإذا استطعت أن تعيش في المدينة بأعصاب عمدة على مصطبة في الفلاحين فأنت أطول الناس عمراً !

خفلة يد صينية

كان الطريق إلى الصين اسمه : طريق الحرير . أي الطريق الذي يحمل فيه تجار أوروبا خيوط الحرير من الشرق إلى الغرب . ويشترون هذا الحرير بأسعار غالية جداً . وظل الطريق كذلك مئاة السنين ، حتى انتهى العلم الحديث إلى أنواع أخرى من الحرير الصناعي . . وأصبح الطريق إلى الصين اسمه الطريق الذهبي . . أي طريق الإبر الذهبية لعلاج جميع الأمراض . وقد انتهى أهل الصين من ألوف السنين إلى أن أمراض الجسم يمكن علاجها بالضغط على أماكن معينة في الجسم

عرفوها وحلدوا منها ٦٠٠ موقع . فإذا جاء الطبيب إلى المريض أسك إبرة ذهبية وراح يفرسها في هذا المركز ويهز يده بخفة وسرعة . لبعض الوقت وبذلك يتم علاج أى مريض دون أن يتألم .

وأهل الصين ، في كل عواصم العالم ، يستخدمون الإبر الذهبية في التخدير الذى يسبق العمليات الجراحية دون أن يترق المريض قطرة دم واحدة
ويستخدمونها في العلاج أيضًا . وفي استطاعة المريض أن ينظر بنفسه إلى الأطباء وهم يفتحون بطنه . ومن العجيب أن الدم لا يترق منه ، وأن الأطباء لا يحتاجون إلى نقل دم جديد إلى المريض أثناء الجراحة - كل هذه حقائق لا شك فيها الآن !
وكان أهل الصين يعتمدون على خفة أيديهم في تحريك الإبرة . ولكنهم الآن اهتموا إلى استخدام أجهزة صغيرة ذات بطاريات تحدث ذبذبات عالية تصل إلى ألوف المرات في الدقيقة الواحدة ، مما لا تستطيعه الأيدي الإنسانية . .

ولكن ما الذى تحدثه هذه الإبر في الجسم الإنسانى ؟ هذا هو السؤال الطبيعى ولكن لا توجد إجابات طبيعية على ذلك .

رأى يقول : إنه علاج عصبي . . وأن هز الأعصاب بصورة سريعة رقيقة يؤدي الغرض المطلوب .

وهناك رأى يقول : بل في الجسم الإنسانى مسالك حيوية . . أو مسالك الحياة . . والإبرة تقوم « بتسليك » هذه القنوات فتعطي الحياة في الجسم بانسجام واتساق . لأن المرض نفسه هو خلل في موسيقى الجسم . . أو هو اضطراب في انسجامه . . وهناك رأى يقول : أن في الجسم الإنسانى شبكات تليفونية . . والمرض هو تشابك هذه الخطوط . . أو هو « مس » بين الخطوط . . والعلاج هو إصلاح هذه الخطوط التليفونية

وقد اهتمب الصينيون إلى أن الأذن الإنسانية فيها كل المراكز الرئيسية للجسم

كله . . فإذا فرضنا أن مريضا يشكو من ألم في مكان ما من جسمه . وهو لا يعرف بالضبط ما الذى أصابه . . فإن الطبيب يمسك أذن المريض ويظل يضغط على مراكز الأذن واحدا واحدا حتى إذا ضغط على مركز وأحس المريض به . . عاد الطبيب إلى الخريطة وقال للمريض : إنه المرارة . . أو أنها الكلية . .

فكل شيء في أذنك . وأنت عندما تشغل أو تفكر أو تضيق فتمسك إحدى أذنيك وترشها بشدة ، أو تلعب بها في رفق ، فأنت تضغط على كل مراكز جسمك من أوله لآخره . بعض الحيوانات تعالج نفسها بأن تهرش أذنيها بأقدامها أو بأن تمسكها في الأشجار أو الجدران . .

بعض علماء الصين يقول : انظر إلى الحيوانات وأنت تعرف حكمة الحياة التي لم يبتد إليها الإنسان بعد !

سبيل أم العجوزة

لا أدخلك الله أى مستشفى زائرا أو مريضا . وألا يكون هذا المستشفى هو مستشفى العجوزة . ففى هذا المستشفى كل صفات الورش والصحراوات والسلخانات والجزابات وجزيرة مالطة . فأنت في هذا المستشفى تحس أنك تؤذن في مالطة ، فلا أحد يسمعك ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئا . مثلاً : إذا وضعت يدك على الجرس . فمن المؤكد أنه جرس بلا صوت . وصوته بلا صدى وصداء في الهواء . ومعنى ذلك أنك أنت « ترن » دون أن تستجيب . ممرضة واحدة . لماذا ؟ لأن الجرس عطلان من شهود . وعندهم في المستشفى أسباب وجية جدا لهذا العطل . وهى أسباب تفننك ولكنها لا ترمحك لأنك في حاجة إلى من يساعدك . تماما كما يقول لك إنسان : إن البيت قد احترق لأن واحدا قد ألقي عليه عود

كبريت وصفيحة بترين . سبب وجيه . ومقنع . ولكن هل استرحت إلى هذا الخراب ؟

مثلا : التليفونات عطلانة لا نستطيع أن نتصل بالمستشفى . ولا أن نتصل به أحد من الناس . فهي جزيرة مألطة التي أحاطت بها المياه من كل ناحية . وهي معزولة عن العالم تماما . ولا بد أن تكون لهذه العزلة حكمة عظيمة . وهي أن يتأذى المريض للموت ، لأن الموت معناه أن يكون الإنسان وحده تماما ، فلا يستطيع أحد أن يساعده . وعلى الإنسان وحده أن يقطع الطريق بين الحياة والموت على رجله هو وحده أيضا . والمصيبة أن المريض يسهل إقناعه بذلك ولكن أهل المريض ما الذى يفعلونه أنهم مطالبون أمام أنفسهم وضائرتهم بإنقاذ المريض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن أين السبل ؟ السبل عبارة عن ممرات طويلة جدا يضيغ فيها الصوت والتصفيق والصراخ واللغات . . وهذه الممرات أيضا فرصة عظيمة جدا لكى يئأس أهل المريض : فكل شئ صدى وكل صدى هباء . وكل محاولة فشل . وكل طبيب حائوز وكل ممرضة سفاحة إلى آخر الصفات القاسية التى تتراءى لأهل المريض !

وإذا حاولت أن تطلب للمستشفى كله الشفاء مما هو فيه . فليس عليك إلا أن تفتح النافذة وتجه إلى السماء . . ولكن قبل أن ترفع وجهك إلى السماء سوف تتركز عينك على الأرض على « غلفات » - وليس من الواضح أن كانت غلفات إنسانية أو حيوانية . ولكن الشئ المؤكد أنها متوكة هناك على الأرض ليراها أى إنسان ويتساءل عن معناها . لا معنى لها إلا الإهمال والقذارة والاعتیاد عليها . . ولكن هذه القذارة تهون إذا قورنت بالإهمال والتراخي واللامبالاة التى يلقاها المرضى . .

وأعترف بأن الاهتمام يصبح شيئا مزعجا إذا مات المريض أى إذا اختاره الله

إلى جواره هنا بسرعة يحىء أناس يهيمون في أذنك . . وآخرون يسألون عن متى
 يتم غسل المريض ، وعن الحنة وعن البخود وعن الكافور . . ويحيىء الحانوتي ويحيىء
 سيارته . . وكل شيء يتم بسرعة جدا . كان هؤلاء الناس يستلذون ما فات ،
 أو يلعبون في الوقت الضائع وفي غمرة الحزن على الفقد تنسى للمستشفى وكل
 ما رأيت وممعت . . وتنسى واجبا عليك هو أن تشكو كل شيء إلى أحد الناس ،
 حتى لا يتعذب مواطنون آخرون . - وتكون أنت السبب !

قالوا :

لا نستطيع أن نعيش بغير أطباء ، ولا أن نموت أيضا !
 لم يبق للمرأة من كل قواها إلا أن تثمر من الشفقة على نفسها .
 « الفشار » رجل له ذاكرة قوية ، يتسنى أن يفقدها الناس !

بأيدينا . . بحنى

قبل هنا بسنة - يقول المثل المصري .

أما الذى هو قبل هنا ، فهو أن تفكر فيما سوف يحدث هذا العام عندما يحىء
 إلى القاهرة والإسكندرية مئات الألوف من السياح - أكثرهم دائما من البلاد
 العربية - أما الذى حدث في العام الماضي ، ونرجو ألا يحدث هذا العام ، فهو
 الزحام على المطار اليتيم في القاهرة ، والاختناق في الجمارك ، وفتح بطون الشنط
 وإخراج ما فيها من أشياء تساوى أو لا تساوى ، وأكثرها لا يساوى الوقت الضائع
 والبهلة الفاضحة ، والإساءة البالغة إلى مصر وإلى العرب . . ثم انفتاح الأنواء
 باللغات هذه اللغات كلها لا يستحقها موظف واحد في جمرتك القاهرة أو

الإسكندرية . لأنه يغذ الأوامر السخيفة المخربة . هذه الأوامر في كل العصور لها معنى واحد . : أن أى إنسان جاء إلى مصر هو مهرب حشيش ومخرب ويجب معاقبته عند أول ميناء للوصول !

وهذه الأوامر تكفى جدا لخلق ملابس أى واحد ، وتعريته وتفتيشه ذاتيا - الأوامر كده . ونحن نعلم جيدا معنى « الأوامر كده » . بل إننا لم نعرف في تاريخنا الطويل سوى الأوامر البوليسية الإرهابية التى تقول : الأوامر كده . وعلى المشتغلين بالثقافة والعلاقات الخارجية والسياحة أن يضربوا رؤوسهم في الحائط ، لأن الذى زرعه في ألوف الأيام ، قد تبدل في ثانية واحدة لأن « الأوامر كده » وفي العام الماضى حدثت أزمة للمساكن المرتفعة وأزمة الشغالات وأزمة السرقات وأخطر من هذا كله أزمة المواصلات . فالتاكسيات لاتقف وإذا وقفت فبشروط . والشروط باهظة . وبعض السياح كان يحتجز التاكسي باليوم وبالأسبوع . وبذلك حرم أهل القاهرة من ركوب التاكسي ، وضع السياح من ندرة وجوده . والذى حدث في العام الماضى من الممكن أن يحدث هذا العام . والنتيجة هى أن عددا كبيرا من السياح حولوا طائراتهم إلى عواصم أخرى ! ونحن لا نلوم إلا أنفسنا .

وليس من السهل صنع المعجزات هذا العام ولا الأعوام القادمة . ولكن يجب عمل شيء . يجب تخفيف القيود على السياح . يجب تشديد العقوبة علينا . يجب أن نتعاون جميعا ، حكومة وشعبا من أجل أن نخفف على كل الناس . يجب أن نتعاون يجب أن نجد للناس ألف عذر . وأن نجد لأنفسنا عذرا .

شيء هام جدا يجب أن تذكره هو أن نحاول أن نبني ما نهدم . . وأن أهم شيء نهدم هو هذه العلاقات الإنسانية . . هو هذه الصورة الجميلة لمصر التى كانت وسوف تبقى كريمة جليلة على نفسها وعلى غيرها . . وكل شيء في أيدينا وبأيدينا إن شئنا أولم نشأ !

ومن هنا نبدأ

باختصار : حلوان لم تعد ذلك الشيء الجميل . ولا ذلك المكان الجاف للصدور المريضة والأعصاب المنهارة . إن حلوان قد امتلأت بالمصانع - بسموم المصانع . والسموم في الهواء . . على شكل غازات سامة وهباب أسود وحرقان في العيون . . وهذا الهواء يدخل الصدور كأنه ملايين السجائر الرديئة . ونحن نعرف ما الذي تفعله السجائر الجيدة جداً في دماء الناس ، فما بالك بالسجائر الرديئة جداً العملاقة على شكل مداخن .

وليس في تناولي بيانات صحية عن نوعيات الأمراض التي يصاب بها الناس في حلوان أو في مصانع حلوان . . لعلهم يحربون أساليب حديثة للوقاية . كأن يشربوا اللبن إجبارياً كل يوم . فاللبن ضد السموم - ويقال إن هذه نظرية قديمة . لأن السموم ليست في الهواء فقط . ولكنها في الماء ، كل ماء تشربه به نسبة من سموم المبيدات الحشرية وهه نسبة من عادم المصانع والسفن والمجارى وركود الماء في كل مكان . . وهناك نسبة أخرى من السموم في اللبن نفسه : لأن اللبن قد جاء من بقرة أو من جاموسة . هي أيضاً قد أكلت البرسيم الذي شرب سموم المبيدات الحشرية في الماء وفي الهواء . .

المفروض أن تقوم كل المصانع في حلوان بإصلاح البيئة التي أفسدتها . كأن تبحث عن وسيلة لامتصاص الدخان والهباب الذي يملأ الجو . لا بد أن نجد وسيلة لتنقية الدخان . لا كل الدخان ولكن بعضه . . فاللدخان يردم البيوت ويقتل

النبات - لأنه يغطي أوراقها . والأوراق هي رقة النبات . فاللحان يكتف أنفاس الأوراق والأزهار والخمار ، والتاس قبل وبعد ذلك !

وإذا كان المواطنون هم المعنيين في الدرجة الأولى ، فالسياح في الدرجة الثانية . ولا أعرف ما الذي صنعناه لهم من أجل هواء أنقى وعيون معدنية أنظف . وكلمة أنظف هي الكلمة الوحيدة التي نحضرن الآن . لأن كلمة النظافة لا تكفى - فالذي يراه الناس في « الكبريتاج » مثلا إن لم يكن قدارة فهي قدارة القدارة أو هي حمامات جهنم . وعند الاغريق نوعان من جهنم : جهنم من النار وجهنم من الوحل - هذه الأخيرة يمكنك أن تذهب إليها برجليك قبل أن يهرب منها كل الساعثين وكل المرضى . . ولا بد من علاج . والعلاج طويل . ولكن لا بد أن نبدأ اليوم أو غدا وهذا هو المهم . ولا بد أن أقول ما يقوله كل الناس في كل مكان ومنذ وقت طويل :

يجب أن يبدأ كل إنسان من موقعه . وبذلك تبدأ كل المواقع في التحرك نحو شيء أفضل . . وكل حركة فيها بركة - هكذا يقول المثل . . والحركة المنظمة هي خير منظم . ولا نطمح في أكثر من أن يكون الخير نظاما ، والنظام ضيقا عاما !

مرضى لكنهم عقلاء

أشعر بالإشفاق الشديد على مرضى المستشفيات العقلية . ولا أرى فارقا كبيرا بين الناس في داخل هذه المستشفيات ، وبين الناس خارجها . . أوحى بين المرضى وبين الذين يعالجونهم من الأطباء . فلا يوجد واحد بيننا لا يكون مجنونا مرتين في كل يوم . مرة عندما يحد قومه عاجزا ، ومرة عندما يواجه أحد بحقيقته . وقد قابلت عددا كبيرا من أولياء أمور المرضى واستمعت إلى أنواع وألوان وأحجام

العذاب العلاجي والوقائي الذي يلقاه أبناؤهم في المستشفيات . .
وعرفت المقارنات المؤلمة بين هذه المستشفيات وبين حديقة الحيوانات
والسلخانات وسجون إسرائيل . . وشاركت في حملة صادقة ضد المستشفيات -
أودور الاستشفاء النفسي - وانتقلت الحملة إلى السلطات الشعبية . . وتعيش أنت
وغيرك وتسمع من تصرخ من الألم وتضيق صرخاته ويعود كل شيء إلى ما كان عليه
من عذاب وهوان !

وأخيراً تلقيت رسالة من شاب يشكو من نوعين من العذاب : أنه يتمذب وأن
أخاه يتمذب حتى الموت وقد دخل الاثنان دار الاستشفاء للأمراض النفسية
بالعباسية منذ عشر سنوات بتهمة الإدمان ، أو حتى يتخلص منها أبوهما
الدبلوماسي ليتزوج فتاة سويدية كانت تعمل سكرتيرة بالسفارة . . أن أحدهما
لا يطلب وقف العذاب وإنما يطلب تخفيفه . ولا يطلب إنقاذ أخيه من الموت
بسبب الصدمات الكهربائية التي تكويه منذ أربعين يوما ، ولكن يطلب فقط أن
يكون موته رقيقا هادئا وهو عريان على أرض القسم رقم ١٢٤ .

ثم إنه يستحلف الدكتور ماضي أبو العزائم والباشترجي كامل الشافعي ، أن
يعرفا الشفقة أو الرحمة حتى لا يموت هو أيضا في زمراته التي يأكل ويشرب
ويتبول ويتبرز فيها . . وهو يرى أن هذا التعذيب الذي لاقى حدود احتماله كان
بسبب أنه شكا يوما وأنه أرسل خطابا خارج الأسوار . . ولذلك فانهم يعاقبونه
ويعاقبون أخاه ، ويعاقبون الاثنين معا عندما ينظر أحدهما إلى الآخر . .

أنا شخصيا غلب حاربي مع الدكتور ماضي أبو العزائم ، ولا أعرف أين
الطريق إليه . . فهل الدولة أيضا قد غلبت حميرها وتحوّلها معه ؟

إن فيلم واحد طار فوق عرش الوقواق ، يؤكد أن الأطباء في أحيان كثيرة أكثر
قسوة على المجانين من المجانين على أنفسهم !

أوجاع الشفاء

وهل تفهم أحسن من أهل الصين (٧٠٠ مليون) . لقد جربوا ذلك أكثر من أربعة آلاف سنة . والنتيجة مائة في المائة !
وأمام هذه الأرقام كلها أعطيت ذراعى وساقى . وقال لى : ما هى أوجاعك ؟
قلت له : مصاريفى يادكتور .

- وماذا أيضًا ؟

- وهل هذا قليل ؟

- وماذا أيضًا ؟

- قلت والنوم يادكتور ؟

- ماله !

- لا أنام إلا قليلا . وأقفز من الفراش كأننى عفریت . . أو كأن عفریتا أراد أن يسجل لى هدفا فى شبكة تبعد عنى ألف كيلومتر . .

- وهل هناك أوجاع أخرى ؟

- كثيرة . ولكن أريد أن أجد عندك علاجاً وأكون لك من الشاكرين مدى

الحياة .

- هل أستطيع أن أعرف كيف يمكن أن يكون هذا الشكر .

- أكتب عنك ألى عظم الامتان لك . . أو أقول للناس أنتى جربت

وشفيت . وأدعوهم إلى أن يحرموا مثل .. وفى ذلك نحية عظيمة لمئات الملايين من

الصينيين وألوف الأطباء من أمثالك . .

- هذا يكفي . لنبدأ فوراً .

وأنتك الطبيب خريطة للجسم الإنساني . ووضع بعض النقاط على الذراعين والساقين وفي الأذنين .

واقترب الطبيب ومعه عدد من الإبر الذهبية . وبطارياات وعدادات . وبخفة غريبة دخلت الإبر الذهبية أو الإبر فقط ، فلا أعرف أن كانت ذهبية أو فضية . . وبعد لحظات وجلت أشياء قد تعلقت من كل مكان . . وبق الرجل ينظر باهتمام شديد .

. . هذا الاهتمام ألهى كأنه يتوقع انفجاراً . . أو تدقاً للدم من كل مكان في جسمي . . وبعد لحظات لا أعرف بالضبط كم طولها نزع الإبر الذهبية . وقال : غدا نلتق . .

ومفروض أن أعود في اليوم التالي وأن يتكرر هذا مرات عديدة . وبعدها يتم الشفاء .

الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول أنه شفى تماماً !

السم في العمل !

القاهرة رأت من سنوات فيلماً بعنوان « الرقص على الهيدروجين » أو « يوم طفت الأسماك على الماء » الفيلم من إخراج وإنتاج الرجل اليوناني الذي أخرج زوربا . ولم يكن الهدف من هذا الفيلم أن تضحك كانديس برجن وأن تقدم للعالم رقصة جديدة اسمها « النفاشة » . . ولأن تعرض جسمها الجميل على الناس . لم يكن هذا فقط هو الهدف ، وإنما أن يصرخ صاحب الفيلم من شيء خطير : هو أن

البيئة تلوث وأن نهاية الإنسانية في أيدينا . . فقد سقط أحد الصناديق النووية ،
وتسربت منه الإشعاعات فماتت الأسماك في البحر !

الأسماك تموت اليوم في كل بحر وكل نهر ، والسبب هو المواد الكيماوية التي تلقى
بها السفن والمصانع في الماء . فلا يوجد ماء ليس مسموما ، لا النيل ولا أى نهر آخر .
ومن المؤكد أننا جميعا نصاب بأضرار المياه الملوثة كمياديا وأن كل الارتباكات
المعدية والمعدية سببها هذا التلوث الذى ينتقل إلينا من الماء . . وإلى الحيوانات التي
نشرب ألبانها أو نأكل لحمها . والماء عندما يروى الحقول والحدائق يتلوث مرة
أخرى بالأسمدة الكيماوية .

وليس اختفاء الطيور الصديقة للنبات والانسان إلا نتيجة لذلك . . الطيور
التي تأكل الحشرات والآفات قد قضت عليها المبيدات . فمات أبو قردان والغريبان
والهدهد . وكلها صديقة للفلاح . . واختفت الفراشات من الحقول . . أما ملايين
النحل التي تعيش على رحيق الأزهار التي أصبحت سامة ، فقد ماتت أيضا . وقد
استراح العلماء إلى أن عمل النحل برغم ذلك معصوم من السموم ، ولكن العمل
نفسه عندما يتعرض للهواء الملوث والأيدى الملوثة ، لا بد أن يصبح ساما - وهذا
هو الذى تحدث عنه الأدباء والشعراء عندما قالوا أن « السم في العمل » . وفي
التوراة تلك الفزورة التي لم يعرفها شمشون عندما سأله « دليلة » تلك الفتاة
الجميلة : ما هو الحى في الميت ؟

ولم يعرف شمشون ذلك فقضت دليلة شعره مصدر قوته . . أما الشيء الحى في
الميت ، فهو أن النحل قد اختفى في جثة أسد ميت وراح يضع العمل . انتهت
الأسطورة . ولكن علماء القرن التاسع عشر اهتموا إلى حقيقة أخرى وهى أن
الميكروبات التي كانت في جثة الأسد لم تنتقل إلى العمل . . فالعمل قاتل لكل
الميكروبات . .

ومع قدوم الصيف وانتشار الذباب سوف يتعرض الانسان إلى سم يضعه
بيديه : هو البيرسول .

إن قرارا أصدرته الأمم المتحدة على لسان طبيب مصرى هو د . مصطفى طلبه
يؤكد أن مبيدات الذباب بمختلف أسمائها وأشكالها سم جديد . فالانسان يحاول أن
يقتل به الذباب لينام على جسده . ولكنه لا يدري أنه يشرع فى قتل نفسه أيضا !

الإنسان حيوان ملوث !

فى كل مكان من العالم صرخات تنادى : الهواء ملوث . . الماء ملوث . .
الانسان قد لوث كل شىء . . وأن حياته فى خطر . . وأنه هو السبب . . فهو
القاتل والقتيل :

وأسباب التلوث كثيرة : للمصانع والموتورات . . أو كل شىء يحترق فى الهواء
والماء . . أى العادم الذى تخرجه المصانع وتصبه فى الماء . . وما يترس من دورات
مياه الإنسان إلى بحارى المياه . .

الموانئ تلوث بزيوت السفن وفضلات الانسان . . وكل الطرق الملاحية التى
تمشى فيها السفن من عشرات السنين ويعشرات المئات من السفن الصغيرة
والكبيرة . ذهابا وإيابا . وأصبح من المألوف ألا تجد الأسماك تمشى وراء السفن . .
ومن المألوف أن ترى جثثا عائمة . . فقد أقامت الأسماك جنازة من نوع غريب . .
المشيعون هم الموتى ، والنعش هو أعلى القاتل :

وسوف يقضى هذا التلوث على صحة الإنسان . وبعد ذلك على الإنسان
نفسه . وكثير من الأمراض التى يعانها الانسان ولم تكن معروفة من خمسين عاما
يصفها الأطباء أو يشخصونها على أنها : أمراض الحضارة ، ثم الاضطرابات

التقية وضغط الدم والحساسية والصداع النصفي ونسوس الأسنان وارتفاع نسبة
الانتحار وانفصال الشخصية أو انفصامها . حتى الاسراف في زيارة الأطباء أصبح
من أمراض الحضارة . فالحضارة لا تؤمن بمعجزات السماء وإنما تؤمن بمعجزات
الإنسان . وقد تزلوا بهذه المعجزات وحشروها في ملابس الأطباء :

ونحن في حربنا ضد الحشرات والحيوانات الضارة نقتل حشرات أخرى نافعة
وحيوانات أخرى في خدمة الانسان . فالمبيدات الحشرية التي تلوث الماء والهواء
والتي نستخدمها للقضاء على الآفات الزراعية قد أبادت النحل وأهلكت العصفير
والغريان وأبو قردان . . ثم أن هذه المبيدات يمتصها النبات ولا بد أن تظهر آثارها
في اللحم التي نأكلها أو في الألبان التي نشربها :

ولا يوجد طعام في أيدينا ليس ملوثا . مادام الهواء والماء والحيوانات ملوثة .
فالتلوث - أو السم - أصبح من أهم عناصر الطعام الانساني . ونحن في حاجة الى
معجزة لكي نتمكن من عزل السم في الجسم الانساني ، تماما مثل الثعابين
والعقارب ، أى نحملة ولا نموت به . . كما نحمل السلاح ولا يصيبنا وإنما يصيب
غيرنا . والنتيجة أننا قاتلون لغيرنا من الناس . أى أننا ضحايا تقدمنا الصناعي
المائل .

ولو كان أرسطو فيلسوف الاغريق حيا الآن لاختار للإنسان تعريفا آخر فهو
الذى عرف الانسان بأنه حيوان ناطق . والأفضل أن يقال : إن الحيوان قدر - أى
ملوث - بفتح الواو وكسرهما أيضا :

المرأة هي المرأة

عدت إلى الكعب الفرعونية القديمة ورجحت أنظر إلى الأساور التي يضعها الرجال في أيديهم . انها للزينة . هذا أسهل مايقال . فلي كثير من البلاد في العصور القديمة لمجد الرجال يضعون الأساور والأقراط والعقود للزينة . فالزينة والتجميل من أهم معالم الأنوثة والرجولة . فالرجل يحب أن يبدو أكثر قوة . والمرأة تحب أن تبدو أكثر تلونا . وتكون ألوانها صارخة وتلفت العين ، وبعد العين تتجه بقية الحواس . والمرأة حريصة في كل وقت على أن تكون مثيرة للانتباه وفاتنة ومرغوبة . وهذه الزينات وسيلتها إلى ذلك .

ولا تزال المرأة في العصر الحديث تفعل ذلك . . لأن المرأة هي المرأة ، أو أن الأنوثة هي هي لم تتغير .

وفي العصور التي ضاعف الرجل من زينه حرصت على أن تبدو هي بلا زينة . أي يبدو وجهها شاحبا وبشرتها من تحت الفستان وصدرها وكل مفاتيها البارزة . . فالمرأة هكذا أرادت أن تكون أنثى بلا مظاهره جالية أو دون أن تستجيب بكل ماحققته الصناعات الحديثة من ألوان وعطور وودرة وكريمات . فكانت أكثر إثارة .

حتى هذا الإهمال ، المتعمد من المرأة جعلها تبدو كأنها نهضت من الفراش أو تريد العودة إليه .

تقول السيدة لولا ماكريلى في كتابها الذي صدر أخيرا بعنوان « أنت

ومراتك : ان المرأة التي لا تجلس أمام المرأة وتدور عينها في وجهها ساعة كل يوم ، لم تولد بعد . . بل إن المرأة كثيرا ماتت لأنها أمام امرأة لا وجود لها . . أو كثيرا ماتت خيل أن طابورا يمشي وراءها من المعجبين ، أو من الحاسدات . . كل ذلك تتخيله المرأة في امرأة عقلها :

وقد لاحظت السيدة لولا أن الرجل الفرعوني كان نموذجاً للبساطة . فلم يكن مشدوداً مفتولاً كالرجل الروماني . ولا كان جميلاً كالرجل الاغريقي . ولا منفوخاً كالرجل البابلي . . وإنما كان رجلاً واقفاً بنفسه في تواضع . ولكنه كان رجلاً وكان يتقدم امرأته دون أن يشعرها بذلك . . إنه يتقدمها بأقل من خطوة وكان يرضيها بذلك ويسعدّها . ولا بد أن الرجل الفرعوني القديم كان سعيداً بأسرته . والدليل على ذلك أننا لا نجد المرأة في حالة خوف منه أو خوف عليه . وهي لهذا السبب لا تسرف في جذب النظر ، أو في أن تشغله عن النظر إلى الأخريات . فالمرأة القلقة هي أكثر الناس ميلاً إلى الزينة ، والمرأة اليائسة جداً هي التي لا تلجأ إلى الزينة . . وأصعب مواقف المرأة هي أن تكون معتدلة الجمال أو التجميل . أي أن تفعل ذلك دون أن تشعر بأنها تضع كل أسلحتها أو تطلق كل ذخيرتها الحية على الرجل أو أي رجل . . إن تاريخ القصور والملوك في أوروبا وفي الشرق يسجل بكل لون : إن المرأة التيبة هي أكثر النساء جنوناً بألوانها وزينتها .

شر لا بد منه

مصيبة كبرى ألا تجد عادة تسند عليها رأسك لتنام . . مصيبة أكبر أن تجد هذه العادة - إنها مأساة فيل برانت مستشار ألمانيا الغربية الذي كان له صديق طول عمره . وباعه الصديق إلى مخبرات ألمانيا الشرقية . .
إنها مأساة بوليس قيصر الذي غناه صديقه بروتوس . وكانت كلمته المشهورة : حتى أنت يا بروتوس . .

إنها قصة السيد المسيح الذي باعه تلميذه يهوذا الأسخريوطى للرومان !
إن الإنسان في حاجة إلى راحة ، إلى أن يستريح إلى شيء أو إلى صدر آخر .
مادام يتعب ، ضرورى أن يستريح . وقد يجد الراحة عند فتاة أو عند رجل . أو عند زوجة أو زوجة أب . وكثيرا جدا ماجاء التعب للإنسان من هؤلاء الذين استراح إليهم فخانوه ، باعوه . والشاعر القديم يقول :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وحدث ذلك كثيرا . وسوف يحدث لأنه من الضرورى أن يستريح الإنسان إلى أحد ، ومن الضرورى أن يتقلب عليك الناس لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من أننا نعلم هذه الحقيقة ، فإننا لا نستطيع إلا أن نحب والآن يكون لنا أصدقاء ، وإلا أن نبحث عن الأمان . وندفع الثمن غاليا جدا . . فالإنسان يشتري الحب بالعذاب ، كما يقول كامل الشناوى ، يشتري الراحة بالتعب ، يشتري الوفاء بالخيانة ، والصداقة بالعداوة . .

وأناس ينصحونك : لاتصادق أحدا . لاتتعلق بشيء . لاتعط قلبك لأحد . .
وعمر الخيام يقول :

شيان في الدنيا هما أفضل في كل ماتوى وماتعمل
لاتخذ في الورى صاحباً ولاتتل من كل مايوكل
ولكنه يطلب المستحيل . . يطلب منا أن نعيش في خوف من كل الناس . في
شك من كل كلام ومن كل أحد . . يدعونا إلى أن نعيش وحدنا مع وساوسنا وسوء
الظن بالناس . . يطلب إلينا أن ننام على المسامير مادامت المخذات خائنة . . أن ننام
في الظلام مادام النور فاضحاً ، أن نعيش في البرودة الآتة ، بدلا من الدفء
المريب . .

وآخرون يقولون : إذا أحسنت الى أحد فاحذر من هذا الأحد . . أى يجب أن
تتق شر من أحسنت إليه . . لأن الذى أحسنت اليه يضايقه أن أحدا فعل له
ذلك . . ووجودك يذكره دائما بضرورة الاستان لك . . ولذلك لايسعدك أكثر من
احتفاظك من حياته ، حتى لايشعر بالعرفان لك . . وهذا المعنى يقوله الخيام مرة
أخرى :

إذا بلغت المجد قالوا زعيم وإن لزمت الدار قالوا لثيم
فجانب الناس ولا تلتمس معرفة تورث حمل الهموم ا
ولكن كيف؟ مستحيل فانت تعيش بالناس وللناس وضد الناس - فهم وانت
شر لا بد منه !
قالوا . .

هذه الادوية تتعاطاها ضد العلاج . . لأن علاج أمراضنا : الموت . .
حلاوة امرأة : مرار امرأة أخرى ا
أغلب الناس موفى ولذلك يجب أن يكون أصدقاؤنا من الأغلبية !

دائما تروح شهر زاد !

مواطن في بنجالاديش مصاب بمرض الزواج قتله زوجته رقم ٣٥ - هذا هو الخبر . ويمكن مراجعة هذا الخبر طبعا وفهمه على النحو الذى يعجبك . فيمكنك استبعاد كلمة « مرض » الزواج هذه واستخدام عبارة أخرى كأن تقول : إن هذا الرجل عنده مرض التغيير . . أو عنده احساس بأن زوجة واحدة لا تكفى وأن الزوجة الواحدة مهما غيرت وجهها وملابسها فسوف تبقى واحدة . والرجل يريد كل يوم فراشا جديدا ، أو جديدا في الفراش القديم . . وحياة هذا الرجل راكدة ساكنة ، ولذلك يحب أن يشع فيها الحركة والحلاقات والمناقشات والضوضاء . وهذا لا يتيسر الا اذا كانت هناك أكثر من زوجة . وقد حاول هذا الرجل أن يغير هذه الحياة المملة ، فلم يفلح حتى الزوجة الرابعة والثلاثين . ولما تزوج الخامسة والثلاثين استطاعت هذه الزوجة أن تتقم للزوجات الأخريات . ولأن هذه الزوجة أقلهن صبرا على هذا الحال ، فعجلت بنهاية الرجل . وجعلت الزوجات جميعا أرامل لرجل واحد . . أو قررت أن تكون آخر زوجة . أو تكون النقطة السوداء التى توضع فى نهاية السطر . . أو تتحول من زوجة الى بطله ، أو الى مصطلح اجتماعى ! وفى امكانك أن تخزن على هذا الرجل الصريح ، لأنه يعبر ويطبق كل ما يدور فى نفسه وفى نفوس كثير من الرجال . ولكن الرجال - غير هذا الرجل - ليست عندهم هذه الشجاعة الأدبية !

وفى نفس الوقت يتجلد الإعجاب بشهرزاد بطله ألف ليلة وليلة . فقد كان

الملك شهريار يقتل كل ليلة عروساً لأنه كهر بالمرأة . فقد كانت له امرأة وجدها في أحضان واحد من الخدم . فقرر أن يتزوج كل ليلة واحدة مثلها ويقتلها انتقاماً لشرفه . . وتشفياً من الجنس الآخر . . ولكن شهرياد هي وحدها التي أدركت أن الرجل طفل كبير . وأن في استطاعتها أن ترضعه قصصاً بوليسية . وأن تقف في كل ليلة عند لغز . ونجىء في اليوم التالي وتحل هذا اللغز وتقف عند لغز جديد وكانت شهرياد تروى للملك هذه القصص ، وهو غارق في أحداث القصص . ونسى حقه على المرأة . ونسى أن شهرياد قد أنقذت نفسها ، وألف فتاة أخرى . ولم يدرك شهريار هذه الحقيقة إلا في وقت متأخر جداً . وفوجئ بأن شهرياد قد حملت وولدت ولكنه لم يلاحظ من ذلك شيئاً . لأنفس أنها حملت . ولا توجهت ولا ولدت . . ولا سمع بكاء الطفل . ولا رآه . .

وقصص ألف ليلة وليلة دليل جديد على أن المرأة تستطيع أن تفعل الكثير وتستطيع أن تستخدم خيال الرجل ، وأن توقظ فيه الطفل الصغير المتعطش دائماً إلى الغرور - إلى رضاء الغرور ، وبعد ذلك تستطيع حواء - أو أي شهرياد - أن تقتل فيه كل يوم رجلاً وتوقظ طفلاً . . لا ٣٥ مرة . . ولكن ألف مرة ومرة !

لن يسرقوا النصر

نحن اخترنا يوم عيد الغفران لعبور قناة السويس سنة ١٩٧٣ . . وسبب هذا الاختيار أننا نريد أن نضاعف عند اليهود شعورهم بالندم . وأن نجعل انتصارنا عليهم يوماً لا ينسون . . وأن نجدد عندهم الذكريات الحزينة . . وأن نجعل يوم حزنهم يوم فرح عند المصريين وعند العرب .

ومن المصادفات الفلكية : أن يكون العاشر من رمضان هو عيد الغفران . عند

اليهود وأن يكون ٦ أكتوبر هو عيد الفطر المبارك . .

ولكن بعض الأشقاء الفلسطينيين انتهبوا العاشر من رمضان وهو يوم فرحنا
ليجعلوه يوم حزن وأسف عميق عندنا . تماما كما فعل نحن مع اليهود . ولذلك
احتلوا الثكنات المصرية المدنية الآمنة في مدريد . . ومقط في أيديهم الصغير
المصري واثنان آخران ؟ !

صحيح انه لم يكن سوى ارتعاج لم يحقق هؤلاء المعتدين أى معنى . . ولم
يصلوا إلى أى هدف . . ولكنهم أفرعوا المصريين ، وحركوا مواجعهم ، وضربت
كل أرملة غديها لأن زوجها قد استشهد من أجل هؤلاء ، وكل أم دقت قلبها لأن
ابنها قد فاضت روحه من أجل هؤلاء . .
لما الذى أراد هؤلاء أن يحققوه ؟ .

إنهم أرادوا أن يسرقوا النور من موكب الشمس . . حتى تكون شمس العاشر
من رمضان قرصا مستديرا بلا ضوء ، يوما بلا نهار . . إن واحدا في أساطير
الإغريق اسمه بروميثيوس حاول ذلك . فاستحق من آلهة الإغريق أقصى أنواع
العقاب . .

إن حكاية تروى عن الإسكندر الأكبر أنهم طلبوا إليه أن يهاجم الجيوش
الفارسية ليلا ، فرفض . . فطلبوا اليه أن يحاصر المدنيين ليستدرج العسكريين في
معركة فرفض قائلا : إننى لأسرق النصر

وقد أراد هؤلاء أن يسرقوا النصر ، أن يكسروا فوانيس الفرح ، أن يجعلوا
الناس يفطرون في رمضان ، أن يجعلوا عيد الغفران عند اليهود عيدا للكفران عند
المصريين . . ولكنهم لم يفعلوا . . ولن يفعلوا . . ولن يهزونا لو كانوا قد نسفوا
السفارة . . فقد نسفت لنا بيوت ومصانع من قبل من أجلهم . . ولو قتلوا رجال
السفارة - والحمد لله أنه لم يفعلوا - فقد مات لمصر مائة ألف من العسكريين ،

وملايين للمدنيين لم يجدوا الطريق تحت أقدامهم . . كل ذلك من أجل هؤلاء . .
فيا هؤلاء لا تخسروا أربعين مليوناً من المصريين هم أشقاؤكم قدموا لكم السبت
والأحد لماذا وجعلوا يوم الاثنين ١٩

بابا نويل . . دائماً

الكنيسة الكاثوليكية أعلنت منذ سنوات أن شخصية بابا نويل خرافة ولا وجود
لها . والكنيسة تريد بذلك أن تطرد الخرافات من دنيها ومن عقول الناس .
وهذا معناه أن الناس تصنع ما لا يجده . أو تخترع ما تريد أن تجده ليربحها .
فبابا نويل أو سانتا كلوس خرج من أدمغة الناس ومن قلوبهم ليحمل أحلامهم من
عام إلى عام . وكان الذين اخترعوا بابا نويل أدركوا ذلك فجعلوه ساعى يريد
يحمل رسائل الآباء الى الأبناء . فهو هذا الرجل الطيب المليء بالحياة . الذى له
شعر أبيض فى لون الثلج ، أو هو الثلج ، ولكن ملايح وجهه ونضارة بشرته ولحان
عينيه كلها تؤكد أنه شاب أراد أن يقوم بدور الأب لكل الأطفال فاستعار هذه
الحية البيضاء الطويلة .

ثم إن هذا الصبي الشيخ يحمل على ظهره هذا الشوال مليئاً بكل ما يريده
الأطفال فى العالم . وكل أب وكل أم يجمع رغبات أطفاله ويضعها تحت عذته فى
الصباح . . ويعلن أن بابا نويل قد حقق له كل أمنياته . . مادام - ولابد من هذا
الشرط - هؤلاء الأطفال يعطون بابا وماما ويذاكرون ويفسلون أيديهم وأسمائهم
قبل وبعد الأكل . وينامون فى ساعة مبكرة ١

وهؤلاء الآباء الذين اخترعوا بابا نويل ليحققوا رغبات أولادهم الصغار ، هم
أيضاً فى حاجة الى بابا نويل ليحل مشاكلهم الكبيرة . . مشاكل الكبار فى البيت

وفي العمل ومشاكل الدول الكبار مع الدول الصغار . . وكانت الأمم المتحدة هي المقر الرسمي لبابا نويل آخر له أسماء متعددة . . مرة كان اسمه برنادوت الذي قتله اليهود . ومرة كان اسمه همرشولد الذي قتله اليهود أو أولياء أمورهم . . وهو الآن اسمه فالدهايم . وهذا البابا نويل لا يعمل وحده . وإنما يساعده عدد كبير من الرجال والخبراء من كل دول العالم .

ولكن لأن مطالب الكبار يصعب تحقيقها ، فبابا نويل هذا وهو انسان حقيقى ، لا يستطيع أن يعمل أى شىء . إنه فقط قادر على أن يجمع الناس ويتركهم يتكلمون ويتدخل فى الوقت المناسب فيرفع الجلسة ، إنه مثل الحكم فى كرة القدم يجرى بين اللاعبين ويصرف ويرفع يديه ولكنه لا يلعب . . وأحيانا يثور عليه اللاعبون وفى معظم الأحيان يلعبه المتفرجون . وتتركز براعة هذا البابا فى أن يصل الى قرارات هامة . . أشهرها القرار ٢٤٢ . وهذا القرار هو وعد بشىء لم يتحقق بالكامل بعد . ورغم أنه لم يتحقق فإن البابا لم يئأس ولا الشعوب كلها . فإذا لم يتحقق شىء . فيمكن لكل دول العالم أن تعلن وهى مستريحة أن بابا الأمم المتحدة ليس إلا بابا نويل آخر ، وأنه لا وجود له . وإنه ينبع فقط من أحلام الدول الصغيرة فى أن يتحقق العدل !

إن بابا نويل الخرافة لأبقى وأروع من هذا البابا الحقيقى !

مصر . . دائما

أناس يريدون خراب مصر . . لماذا ؟

وهم يريدون خراب مصر بإشاعة القلق والأرق ، واهتزاز الأرض تحت شعبي
وحكامها . فإذا لمجحوا في ذلك حرب صاحب رأس المال العربي والأجنبي . .
وهرب السائح . . وهربت الدول من التعاون مع مصر . لأن مصر ليست مستقرة .
ولا تستطيع أن تحكم أهلها وزوارها وتجارها . فكيف يلقى الناس بفلوسهم - أو
بذودهم - في أرض لا يستقر ترابها وماؤها وهواؤها . ان المثل الاغريقى القديم
يقول : الحجر الذى يتحرك لا يثبت عليه العشب . . والمثل الاسبانى يقول :
العواصف تحطم الأشجار فلا تكون لها ثمار . . والمثل الشعبى يقول : إن الأرانب
هربت من البلد لأن الحكومة تعطل البغال . ولما سئلت الأرانب : ولماذا تهربين
أنت ؟ قالت : لأننى أنسى أن بمكوفى وعندئذ لا أفلح فى أن أقتع أحدا بأننا
أرانب أو بغال . . والمثل الشعبى يقول أيضا : دارى على شمعتك تقيد - أى تظل
متقدة مضية ! ومعناها أن لا بد أن نحيط ماعدتنا بسياج من الأمن والأمان لنمضى
فى غرس البلود وجمع الزهور ، والمغار وإضاءة الطريق الى المستقبل . . وإذا لم
نفلح فى الإبقاء على الدفء الهادىء خربت مصر . وقبل أن نخرب مصر نكون قد
خربنا معنويات الشعب المصرى فشككتاه فى نفسه . . فى حضارته فى فلسفته . .
فى انتصارات قواته المسلحة . . نكون قد سحبا النصر من رأسه ، والنود من
عينيه ، والايمان من قلبه ، والسلاح من يديه . . وبذلك نهزم الشعب المصرى فى

داخله ، ولحطم صورته في الخارج .

وليس سرا أن يقال إن هناك حكومة عربية مجاورة لآلية لها إلا بماخرجه من أرضها من فلوس تجعل كرشها أكبر من رأسها ، وأثايبها أطول من ذراعها ، وتجعل انتفاخها مرضا ، عضويا ، ووجودها تطفلا ماليا .

إن بعض العواصم العربية قد عاشت بالفعل على خراب مصر على مرض مصر ، على كل القيود التي فرضتها مصر على نفسها . . . على أرهاقها المادى والمعنوى . . . أى أنها استفادت من كوارث مصر . . . فاذا نهضت مصر وألقت بالهم والنم والمرض والكسل والفقر وراءها ، وقامت كما كانت دائما عملاقا . . . فإن كلا من بيروت وطرابلس وبغداد وغيرها ستعود الى ما كانت عليه من وزنها وحجمها . . . ومن الممكن أن تكبر هذه العواصم الصغيرة ، لأن مصر سوف تكبر وتعلو ويتسع صدرها وخبرها وقوتها ، وترفع الجميع معها . وقد فعلت ذلك كثيرا . وهي قادرة على أن تكرر هذا اللورد - دورها الحقيقى !

عصر العبور

ليس من حق رئيس جمهورية مصر العربية أن يعرض حياة الرئيس أنور السادات للخطر ، ليرغمه على أن يركب سيارة مكشوفة لأن حياة الرئيس السادات واجب قومى . ونحن نحمل كل ما هو حيوى فى بلادنا من أجل الشعب : نحمل المصانع والبنوك والثكنات والمواقع والقادة العسكريين . كل ذلك من أجل سلامة مصر من الأجسام الغريبة التى فى بلادنا وفى كل البلاد . فبلادنا مفتوحة كالسما والمفتوحة كالصحراء . . . ليست عليها أبواب أو نوافذ . . . وفى مصر خليط هائل من كل الألوان والأحجام : فيها العربى الشقيق والعربى غير الشقيق .

وفيها العدو الذي يترصد ، وفيها الصديق الذي يفتن على مصر وقائد مصر ومستقبل مصر.

والرئيس أنور السادات ليس شخصا عاديا . وليس من السهل أن يظهر لنا شخص في مثل أخلاقه ووطنيته وحبه لخير مصر ورفاهيتها وسلام الشعوب العربية . . والرئيس السادات همومه غير مألوفة ومشاكله عالمية . وهمنا أن تسلم يده التي يدير بها مصر مصر ، وأن تستريح عيناه اللتان يرى بهما ثم يقرر بعد ذلك خطوات المستقبل لمصر والأمة العربية .

ثم إننا بالرئيس السادات قد دخلنا عصر الخطوات إلى الأمام والأمان . عصر عبور الحواجز والسيارات إلى النور والحرية والعدل والرفاهية . . عصر سيادة القانون والعدل . . عصر السلام لنا . . ولغيرنا . . عصر حرية الكلمة . عصر يمكن أن نقول لرئيس الجمهورية : إنني أختلف معك ، وليس من حقت أن تتركب السيارة التي تعجبك . . وليس من حقت أن تمشي في الشارع . . ولا أن تعرض سلامة مصر وأمنها إلى هذا الخطر !

إن الرئيس السادات قد نقل مصر والمنطقة كلها إلى الصف الأول في قضايا العالم منذ شهر معدودة . ونحن ندعو الله أن يعطيه عمر الثورة لتنتم مصر بالراحة المؤكدة . . وأن يتم فيها التعمير والتحرير من قيود الإدارة والرقابة والروتين . . إنني أتذكر أن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد ضاق بإجراءات الأمن حوله . وصرخ . ومن حقه أن يصرخ . وأصدر قرارا بتخفيف الحراسة عليه . . ولكن لم ينفذ هذا الأمر . . لا عصبانا له ، ولكن لأن رئيس وزراء بريطانيا قد تجاوز حدود سلطاته . فليس من حقه أن يعرض حياة شخصية فذة مثل تشرشل للخطر ، فيهدد أمن بريطانيا وقواتها أثناء الحرب !

موهبة : أن تولد كل يوم !

عندما سئل برنارد شو : كيف بلغت التسعين ؟
وكان جوابه الحاد : لا شيء . . . لا آكل لحوم الحيوانات وأستظم لحوم
البشر !

ويقول : إنه هكذا كان نباتيا !
ولما سئل الفيلسوف برتراند راسل : كيف بلغ التسعين ؟ قال : لم أتوقف عن
البحث عن السعادة العقلية - أى أنه كان فيلسوفا كل الوقت !
ولما سألوا تشرشل : وكيف بلغت الثمانين ؟
قال : السيجار فى لى والفرشة فى يدى والنوم ساعتين بعد الغداء !
وسئل عشرات المعمرين فقالوا : النوم المبكر . . واللبن الزبادى . . وعدم
شرب الخمر . . وعدم التدخين .

وأخيرا سئل عازف التشيلو العالمى الذى بلغ الرابعة والتسعين من عمره : كيف
وصلت إلى هذه السن وما تزال بهذه الصحة !
وبسرعة أمسك آلة التشيلو - وكأنه يريد أن يمسك الخشب حتى لا تصيبه العين
وقال : لا معجزة فى ذلك . . فأنا منذ ثمانين عاما أصنع قصب الشىء . . أعزف
ساعتين فى اليوم . وأشعر أن كل يوم هو يوم جديد . وأن الذى أراه أمامى قد ولد
لأول مرة . وأجد لذة فى الطعام وفى الشراب . وأعيد النظر والسمع والشم واللمس
لكل ما حولى . . هذا المقعد تأملت ألوانه كل يوم . .

ومررت بأصابعى عليه كل يوم . . وكذلك كل ماف هذه الدنيا . . إننى أولد كل يوم . . لأن كل شىء حول يولد كل يوم . . والإنسان يعيش أطول إذا كان حاضرا دائما . إذا لم يغيب عن الحياة ، وإذا جعل الحياة لا تغيب عنه . فالموسيقى ليست واحدة . والطبيعة ليست واحدة . وأنا لست نفس الشخص الذى كان بالأمس والذى يكون غدا . وإذا مت فعنى ذلك . . أننى توقفت عن التجدد . وأن جسمى لم يعد قادرا على أن يلدنى ! فقط هذا ما أعمله ! وكأنه قال شيئا سهلا يمكن لأى إنسان أن يفعله . إنها موهبة عظيمة أن يولد الإنسان مرة واحدة . ولكن أن يولد كل يوم هذه إحدى المعجزات ! وعندما سئل رجل من الدقهلية بمجاوز المائة عام أجاب ولا يهلك ! ولا يهلك من الناس ومن مصائب الناس . ومن الحياة ومن مصائب الحياة التى هى الناس . كلام معقول . . ولكن كيف ؟ قليلون فى هذه الدنيا من يستطيعون أن يفعلوا ذلك . فإذا فعلوا طالت حياتهم . . ولكن أى حياة هذه ؟

الصور المقبولة

هذه النكتة سمعتها من الشاعر السوفيى يفتشنكو عندما كنت فى رفته فى أسوان . يقول إن فنانا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى طلبوا إليه أن يرسم أحد الأقطاب وكان هذا القطب أعور . ولما رآه الفنان أصيب بحيرة شديدة . . كيف يرسمه ؟ إن رسمه بعين واحدة كان واقعا جلما ، وإذا رسمه بعينين كان غير واقعى . ولكن الصورة بعينين أجمل من الصورة بعين واحدة . . وإن فقا عينيه وأبرز جبهته ورأسه ، لم يكن واقعا أيضا . ولكن لابد أن يرسمه . وإذا رسمه بعين واحدة فى

متصف وجهه ، فإنه بذلك يجعله أقرب إلى صور الشياطين ، أو صور سكان الكواكب الأخرى ، كما تخيلهم الناس في كل العصور . .

وبعد أيام امتدى الفنان إلى رأى . لقد رسم هذا القطب السياسى بروفيلًا - أى رسم جانباً من الوجه . أى الجانب الذى به العين . وهو بذلك لم يغير من الواقع شيئاً . ولكن اختار أجمل ما فى الواقع . ولكنه فى نفس الوقت واقعى ذكى مرئ ! وليست هذه النكتة إلا أسلوباً ذكياً فى معالجة الواقع عموماً . أو ما يجب أن يفعله الفنان أو الكاتب أو السياسى أو المصلح عندما ينظر إلى الحياة عموماً . فن الحياة عيوب كثيرة . ومصائب أكثر . ولو وضعنا الكوارث بعضها إلى جانب بعض لأصبحت الحياة شيئاً لا يطاق . وإذا أغفلنا عيوب الحياة ، ولم نر إلا الجانب المشرق فيها ، كنا مغالطين ومضللين وحشاشين أيضاً .

إذن ما هو الحل اليوم لهذه المشكلة اليومية . . أن تفعل كما فعل هذا الرسام . . يجب أن نختار الجوانب للمكنة . الصور المقبولة . وسبب ذلك أننا لا نريد أن نجعل الحياة مقبرة متوحشة للأحياء . . وأن نغريهم بأن يموتوا أفضل لهم ولنا . وهكذا يتحول الكاتب أو الفنان إلى « جاثوقى » . وهذا الجاثوقى يريد أن يقضى على مشاكل الناس بالقضاء على الناس ، أو يريد أن يحل أزمة السكن بأن يضع الناس كلهم فى السجون . . أو يريد أن يقضى على زيادة السكان بقتل الرجال فقط أو الإناث فقط . . أو قتل الأطفال . .

ولمحن نقع كثيراً فى هذا الغلط . فباسم النقد لعيوب المجتمع وتوجيه الناس إلى الأفضل فى حياتهم نتحول إلى زوجات أب لكل طفل : نضره ولا نرى إلا عيوبه وإلا متاعبه . . ولا يرمعنا إلا القضاء عليه . . وعلى كل طفل آخر . . وكل حياة وكل أمل فى إنسان أفضل !

والذى يوجع القلب حقا . أننا عندما ننظر إلى مصر ننسى أنها أمتا . وأنها ليست زوجة أب .. !

قالوا :

أن نحب : أن تطبق عينيك عن نساء كثيرات !
أكبر دليل على شجاعة المرأة فى العطاء : أن نحب !
فى الثلاثين : تبدأ المرأة أوتتنى !

معاني الحريف

الهواء فى المقابر صحى : يناسب الأحياء ولا يحتاج إليه الموتى : فالهواء نقي جاف والشمس ساطعة . وهناك أشجار تقوم بدورها الفلتر للهواء إذا تلوث من شىء . ويظل جو للمقابر صحيا ، حتى إذا ذهب الأحياء ، فإنهم يفضلونه . ولذلك يجب أن يذهب الأحياء من حين إلى حين لتستريح صلورهم ..
وليس فقط هواء المقابر هو الذى يريح نفوسنا وأجسامنا .. ولكن الوقوف أمام القبر ، كما تقف الكلمات فى نهاية السطر أمام مثل هذه النقاط .. الوقوف أمام النهاية هو الذى يريح . الوقوف عند محطة إطلاق الأرواح إلى مداراتها فى السماء . هنا ينتهى كل شىء ويصبح لا شىء . هنا يفصل الإنسان عن الذين يحبه ويحبونه ، ويكرههم ويكرهونه ، ويؤلمهم على نصيب أكبر من الحب والكراهية .. هنا تنتهى السلسلة الطويلة التى بدأها الإنسان فى بطن أمه .. هنا يتقل الإنسان من ظلمة الرحم إلى ظلمة القبر .. هنا يعود الإنسان جنينا مرة أخرى فى سلسلة لا يعرف إلا أولها ، أما آخرها فلا يعلمه .. هنا يتلقى الإنسان : روح

وجسد . . روح هناك وجسد هنا . . الروح في « ناحية » والجسد في ناحية أخرى . .

ولكن أين هذه الناحية الأخرى نحن لانعرف ، ماذا بعد هذا لانعرف ؟ أين يذهب هذا الذي تعرفه ؟ لانعرف الآن . . وسوف نعرف بعد ذلك ما هي أهمية هذا الذي تعرفه ؟ ما أهمية هذه الحياة ؟ ما أهمية هذا الوجود الإنساني . . ما هي الحياة ؟ ما هو الحرص عليها ؟ ما هي الكبرياء ما جدوى الحب ، ما ثمن الكراهية . . ما معنى التنافس والتناحر والحروب . . ما معنى كل هذه الحضارة الإنسانية . . إذا كانت هذه الحضارة مثل العطر للزهر . . لما الذي يبق من الزهر إذا ذهب العطر . . ما الذي يبق من الإنسان إذا اختفت الحضارة . .

ثم ما الذي يبكى عليه عند المقابر ؟ ما الذي نراه ونحاف منه ؟ ما الذي نستعجله ؟ ما جدوى هذه الدموع هل يشعر بها الميت .

وهل الذين نبكى عليهم يدرون بنا . . وإذا دروا فما فائدة أن نبكى على الذي راح . . ونحن سوف نروح وهل يهمنا أن يبكى أحد علينا ؟ هل نحن نبكى على أنفسنا ؟

أقرب إلى العقل أن تفعل ذلك نبكى على الوحدة المتوحشة . . الوحدة التي تأكل الدنيا من حولنا ، فلا يبق أحد سوانا . . على الوحدة قبل القبر ، وعلى الوحدة الموحشة بعد القبر .

هل نبكى على أن كل شيء ينتهي هكذا . . بمنتهى البساطة يتوقف كل شيء . ولا أهمية لشيء . ولا قيمة لأحد . ولا خطورة لهذه الإنسانية . ولا وزن لهذه الحضارة . كله تراب على تراب إلى تراب . . منتهى التفاهة نحن والذين من بعدنا والذين من قبلنا .

لست على يقين من شيء . . ولكن على يقين من شيء واحد : إننى أبكى على
بقايا الدين راحوا . . بقاياهم فى نفسى وفى جسمى . . إننى أبكى بهم عليهم ؟
ملحوظة : كل هذه المعانى تماثلت حول كأوراق الحزيف بعد أن جفت
دموعى . . !

بيكاسو ميتا

مات كلب العمدة ، سار الناس فى جنازته . مات العمدة ، لم يمش أحد فى
جنازته - مثل مصرى !

مات بيكاسو حزن الناس عليه . الدين يعرفونه والذين لا يعرفونه أكثر بزمان من
الذين يعرفونه . وأنا حقيقة لا أعرف لماذا حزن عليه أى أحد . لا هو شاب صغير
مات فى حادث سيارة . أو طيارة ولا الظروف وقفت فى وجه موهبته . ولا هو
صاحب موهبة ، ليس لها ثمن ، ولا الفن الذى أعطى لموهبته كان قليلاً خائفاً له
لموهبته ، وباعها على بأس مواهب أخرى كثيرة فى فرنسا موطنه الثانى أو أسبانيا
موطنه الأول ، أو فى العالم موطنه الثالث . ولا هو عندما كبر أصبح رجلاً خيراً
إنسانياً لا يكاد يسمع عن فنان صغير مال عليه الزمن حتى اهتز له قلبه وأرسل له
بضعة ألوف من اللولارات . لا شيء من ذلك . فقد كان رجلاً بخيلاً . والحق
معه . فالبخل خير من سؤال البخيل - حكمة أصعبت بها ولا أعرف كيف أطبقها .
ولا كان هو الرجل المخلص لأحد من الناس ، رجلاً أو نساء . لئلا عالم النساء :
كان فاتاً لكل النساء . والمرأة مبهورة بالرجل الذى يتحدث عنه الناس لأنه شخص
غير مفهوم ، أكثر من الرجل الذى لا يتحدث عنه الناس لأنه مفهوم . فالأول
نقلية وهى عاشقة للتقاليع . وكثر الناس على بابه وفى بيته وفى لوحاته . واقتات

ناثحات عاريات بمجنونات مشوهات . وهذا هو الذى يعجب النساء . وتزوج منهن ما استطاع . وطردهن البوليس منهن ما استطاع أيضًا . ولكن تعبت النساء كالحب في فرشاته ، وكالفلوس في البنوك ، وكالحسد في عيون الفنانين الآخرين .

وعندما عرف الناس كم تبلغ ثروته سحبا حزنهم عليه - أن كانوا قد حزنوا . وتمنى كل رجل أن يكون ابنه الوحيد ، وكل امرأة أن تكون أرملة الوحيدة . ولم يعد أحد يحزن عليه . ولو تذكر بعضنا كيف حزن العالم كله على كلب بيكاسو يوم سقط غارقا في برميل من الزيت يستخدمه بيكاسو في الألوان ، لأدرك الناس أن الحزن على كلب بيكاسو كان أصدق وأعمق من الحزن عليه . فالكلب فسكين ، وأكثر من ذلك أن ثروة سيده وشهرته وعبقريته لم تنقذه من هذا الموت . . صحيح أن الكلب ترك وراءه سيده يملك الملايين ولكن هذه الملايين لم تنقذه من الفرق . . لا هو ولا سيده !

قالوا :

في الشباب : كل الناس أصدقاء وأعداء ، في الشيخوخة لا أعداء !

في الشباب لا نرى أحدا ، في الشيخوخة لا يرانا أحد !

يبحث عن الراحة في الحب ، يبحث عن الظل في الشمس !

المشي والعلاج

الكتب التي نقول لك : إن الحياة تبدأ بعد الخمسين أو بعد الستين ، كلها تؤكد حقيقة واحدة . . . أنه من الممكن أن يطيل الإنسان في عمره . فبدلاً من أن يشعر بالشيخوخة ابتداءً من الخمسين أو الستين ، ويبدأ في التوقف عن ممارسة الرياضات اللذيذة التي اعتاد عليها ، فإنه يبدأ يحذف من حياته أشياء كثيرة لا تناسب مع سنه . فهو مثلاً لا ينهض من النوم مبكراً لأنه عجوز . ولا يسهر حتى ساعة متأخرة لأنه رجل عجوز ، ويسرف في طعامه وشرابه ، لأنه يا الله .. حسن الحتام . ولا يذهب إلى السينما أو المسرح لأنه لم يعد شاباً . . . وأسوأ من هذا كله أنه لا يمشي على قدميه لأنه خلاص كبير ، ورجل هنا ورجل هناك - أي رجل في الدنيا ورجل في الآخرة !

إن كل الأطباء وخبراء التجميل يرون أن العلاج الوحيد لكل أمراض الإنسان بعد الأربعين هو : المشي . . . والكثير من المشي . . . وأحب أن أقول شيئاً هاماً . . . وهو أن الأمراض التي تظهر بعد الأربعين لا علاقة لها بالسن . لمن الممكن أن تكون هذه الأمراض قد بدأت في العشرين أو الثلاثين . ولكنها في الأربعين ستجد الجسم مستعداً للاستسلام لها . . .

فالمشي علاج للروماتزم وعلاج لضغط الدم . وعلاج للسمنة وعلاج للنحافة لأن المشي يؤدي إلى تنشيط عام في الدورة الدموية وإذابة الكثير من المواد الزائدة على الحاجة لها أسماء غريبة لاتينية ويونانية أعفك منها . . .

وأعنى نفسى أيضا . . .
فالمشى بعد الأربعين وبعد الستين لا يجعل لك رجلا هنا ورجلا هناك . . وإنما
يجعل الرجلين هنا عشرات السنين . . برنارد شو مثلا . . مات في التسعين !

مطارد أنت أيها الانسان !

أنت لم تعد في حاجة إلى أن تحطف ماتريد . . ولا أن تصرخ بأعلى صوتك
ليسمعك الناس . . ولا إلى أن تقتل غيرك لأنك مختلف معه في الرأى . .
وإنما أنت تنتظر معظم الوقت ليأتيك كل شيء وأنت جالس : النور يدخل
لك من الأملاك والماء من الحنفيات والرغيف من الفرن . . وجميع ما يحدث في
مصر وفي العالم يمرى أمامك على الشاشة . . فالدنيا من القمر حتى أعماق البحر
تسمى إليك . . لا لأنك ملك الملوك ، ولكن العلم الحديث قد ألغى المسافات بين
الناس . .

ومنذ دخل الإنسان عصر الآلات المتطورة جدا ، أصبح مجهوده الجسمى
ضئيلا . لا يستخدم يديه ولا قدميه ولا أسنانه إلا قليلا . . فالسيارات والطائرات
والشوك والسكاكين كلها اختصرت تعبهم وعذابه . .

واعتاد الإنسان على أن يجلس . . وأن يتمدد وأن ينام وهو يأكل وهو
يشرب . . ولما تعب الإنسان من هذا الكسل والخمول الذى ضاعف وزنه ، وجهد
عروقه فإنه عاد إلى المشى وإلى الجرى . كأنه لا توجد في الدنيا مواصلات . أو كأن
العلم الحديث لم يخترع له شيئا . .

إن الآلات الحديثة قد أعادت إلى الإنسان مرحلة قديمة جدا من حياته وهى
مرحلة الزراعة . . أو مرحلة الفلاحة . . أى أنه يعمل ويتنظر . . وينزر الأرض

ويتنظر ، ويروها ويتنظر . . ويظل طول عمره في انتظار الشمس والهواء والسماء أن تفعل من أجله أى شيء . . والتاريخ يقول لنا أن مرحلة الزراعة هذه قد جاءت بعد مرحلة أخرى مثيرة . وهي مرحلة الصيد . . فقد اعتاد الإنسان أن يطارد الوحوش ، وأن يأكل لحما ويرتلى جلدها . . ويطور أسلحة الصيد . . وكانت حياته مثل حياة الوحوش أيضًا : مثيرة مخيفة . وكانت لحظات الراحة والأمان قليلة . .

ثم إن الإنسان بعد أن يجاوز مرحلة الصيد ويدخل في مرحلة ترويض الوحوش وتحريك الطيور الجارحة إلى دواجن ، وأقام البيوت والأسوار هدأت حياته وسكنت واستقرت . . وأحس في هذا الهدوء بالاستكانة وبالحمول والتواكل والانتظار . . وهو الآن قد دخل في هذه الحالة النفسية ، رغم تطور العلم الحديث . .

ولذلك يجب أن يحرك الإنسان حياته الساكنة ويهزها ويشيرها . ويضع الشطة والنار فيها حتى لا يكون ضحية لوحش لا يشيع هو : الملل !

وهذا ما يفعله التليفزيون والسينما والرياضة بكل أنواعها . مثل كرة القدم . . ما معنى الذى تراه ؟ إنهم اثنان وعشرون لاعبا يطاردون كرة يقتربون منها ولا يسكنوها . . يبحرون وراءها حتى إذا أدركوها طردوها وأبعدوها . ويتساقطون ويتضاربون والناس من حولهم يصرخون . . والتليفزيون يعرض رعاية البقر والجريمة والجناسومية والحروب وكلها مطاردات والناس يتابعون ويلهثون . إنهم يحنون جميعا إلى مرحلة الصيد والقنص . ولولا ذلك لأصبحت الحياة بحيرة راکدة كربة الراحة واللون . فإذا هزرت حياتك تغير لونها ورائحتها وطعمها . . وإذا تحرك كل شيء فإنك تحتاج إلى السكن . وإذا سكنت حياتك فأنت في قلق إلى تحركاتها ، وتظل هكذا ، فلاحا تعب من الانتظار ، وصيادا أرهقته المطاردة حتى الموت !

الدين والفن

إما أن يكون معنى الدين مختلفا تماما ، وإما أن تكون روح الجدية هي التي لها معنى مختلف تماما عن كل معنى عرفناه أو قرأنا عنه أو تصورناه . . وإليك مثلا : كل التعليلات الدينية أو حتى الأفلام الدينية .

فأنت أمام مجموعة شاذة من الناس . . واحد لا تكاد تكلمه حتى يشنخ ويصرخ كأنك كويته بالنار . . أو مسقطت ملابسه فجأة وإذا هو عريان ملط .
أو أمام واحد جاد جدا ولكنه في حالة غيبوبة . . فهو إذا تحدث إليك نظر إلى الحائط . . أو يجاوزك ونظر إلى السماء كأنك غير موجود . . أو كأنه غير موجود مثلك تماما . . ولا نعرف إن كنت أنت المقصود بهذا الكلام أو المتفرجون في الصلاة . . أو تجار الخدرات الذين أعطوه هذه الكمية الهائلة التي دوخته . .
ثم إنك تجد النساء عادة أكثر جرأة من الرجل . تجد المرأة الشجاعة التي تموت في سبيل الدين . . أو التي لا يهمها ما تلقاه من أجل الدعوة أو المبدأ . .
ثم إنك تجد الكفار من أي دين أكثر أناة والطف شكلا وأخف دما . .
والنتيجة أن الذين يقومون بأدوار الأبطال المسلمين للمقاتلين من أجل الإسلام مجانين مهوسون غلاظ الصوت وثقلاء . . ومفروض أن هؤلاء هم الذين ينشرون الدعوة أو يحمونها . . وهم أولا وأخيرا مثل عليا لكل الناس . وعلى ألسنتهم قد جاءت أجمل العبارات وفي حركاتهم أصعب المواقف التاريخية والدينية . .
فكيف نجد الدين شيئا مختلفا ؟ لابد أن الدين عند المؤلفين والممثلين والمخرجين

له معنى سخيف جدا . ولا بد أن مفهوم الجدية هو أن يكون الإنسان ثقیل الدم . أما خفة الدم فقد احتفظوا بها للصوف والمهرمين والعشاق . . أما رجال الدين فقد احتفظوا لهم بكل ما يجعل الناس يكرهون الدين والدعوة الدينية . . والأفلام الدينية .

ولو استعرضنا الآن أسماء الأفلام الدينية الأجنبية وكيف أنها كانت جادة لطيفة . . وكيف أن أحدا لم يفقد صوته بسبب الزعيق ، أو لم تفجر عروق رقبته بسبب الشنق .

والسبب واحد : هو أن مفهوم الدين والتعبير عنه مختلف تماما عندنا وعند غيرنا . . فأفلامهم تدعو إلى الإيمان ، وأفلامنا تدعو إلى الإيمان بغير ما تؤمن به !

الشباب والإيمان

هل الناس في أمريكا آمنوا أخيراً؟ إن انتشار عدد من المذاهب الدينية الشرقية دليل على أن الشبان قد التهبوا إلى الله ؟ هل هي نزعة دينية هل هي موجة إيمان؟ .

فقد ظهرت في أمريكا مذاهب دينية تدعو الشباب إلى ترك البيت وإلى الحياة في العراء وفي خيمة وعلى رغيف يتحولونه من التمس . . لقد فعل ذلك ملايين من أبناء الأغنياء . . فجاءهم رجل من الهند . وأخيراً جاءهم مليونير من كوريا الجنوبية يدعو إلى وحدة الكنائس المسيحية . . أو يدعو إلى الوحدة الووحية وجمع الصف . . أما رهبان فيتنام فإتهم بدعون الشباب إلى أن يتجردوا من زينة الحياة : من السيارات ومن الملابس والشعر الطويل والبيوت المكيفة . .

وإلى أن يتعدوا عن كل ما هو حرام . ويدعونهم إلى الحب الشريف والزواج

الشرعى . . بل إن بعض المذاهب تدعو العروسين إلى أن يتباعدة أربعين يوما . .
وفى ذلك ضبط لرغبات الإنسان . . وتأكيده لآدميته . .

وقد ظهر من بين الأنبياء الجدد عدد من النصابين الذين استغلوا الشبان فى
التسول واستدرجوا الفتيات إلى الدعارة . ولذلك اختطف الآباء أبناءهم بالقوة .
وظهر عدد من هؤلاء الدعاة أمام البوليس والمحاكم وما يزال أكثر الشبان يعيشون
على أطراف المدن ، مستنكرين الحضارة الغربية الأمريكية . مؤسسين بالبساطة
الهندية الصينية الكورية الفيتنامية . ثم إن هؤلاء الشبان لم يجدوا الأبوة والحنان
والدفء إلا عند هؤلاء الدعاة - أى هؤلاء الأنبياء الوافدين من الشرق . كما أن
المجتمع الأمريكى فى غاية القسوة . إنه عموم يتساقط منه أثناء الجرى والمنافسة
والسباق كل أطفاله الصغار وكل قيم الإنسان : الأبوة والبنوة والحب والحنان
والأسرة .

كما أن هؤلاء الشبان يريدون أن يعرفوا الحب وأن يعطوه لأطفالهم إنهم بذلك
يقومون بتصحيح للأوضاع الخاطئة التى عاشوا فيها وتعودوا عليها . إنهم لم يجدوا
الحنان . ولكنهم رغم ذلك يريدون أن يورثوه لأطفالهم . . إنهم ليسوا حاقدين على
أحد . وإنما هم يريدون أن يحققوا نوعا من العدل والتعادل الاجتماعى .

إن واحدا من هؤلاء الدعاة وهو مليونير من كوريا الجنوبية اسمه « مون » وقف
فى الأسبوع الماضى يقول : يا شباب أمريكا . . أنتم لقطاء . يا شباب أمريكا . .
أنتم ضحايا المصانع والأحزاب السياسية وشركات الأدوية . . يا شباب أمريكا
تعالوا أعلمكم شيئا جديدا . . أجروا بعضكم البعض . . إن الإنسان ليس فى
حاجة إلى معجزة لكى يكون إنسانا . . فقط أن يتعاقب فى الله . وأن يحب فى
الله . . وأن يعيش بالله والله وفى الله . . ويصرخ الشبان بالملايين قائلين : آمنا بأى

إله !

زحام .. زحام !

الفنادق والشقق الخاصة في السعودية لا يمكن أن تستوعب الحجاج ولا تستوعب منهم إلا عددا قليلا وبأسعار غالية جدا .. ولذلك فكثير من الناس ينامون في الشوارع .. أو ينامون حول الكعبة .. أو أمامها .. وهؤلاء الذين حلوا مشكلة النوم بالعشرة والعشرين في غرفة واحدة ونام تحت السماء ثلاثة أرباع مليون نسمة .. وفي استطاعتك أن تتخيل بقية احتياجات الإنسان الذي يأكل وينام في مكان واحد في الطريق العام .. وفي استطاعتك أن تتخيل كيف يقضى ضرورات الحياة بعد ذلك .. وما هي نوعيات هؤلاء الناس ومدى حرصهم على النظافة أو النظام ، ، أو إدراك الأضرار المعجية التي تجيء نتيجة الإهمال أو الاستخفاف أو الجهل ..

ولا يوجد بيت في جدة ليس به حجاج .. في غرفة أو على سلاله أو في دورات مياهه .. وفي هذه الغرف يتراحم الناس بكل ما يملكون من طعام ومتاع .. ومن يعمل ومن يندخن ومن يطبخ ومن يأكل ما طبخه أو يفرضه على الآخرين .. أعرف صديقاً أستاذاً في الجامعة كان في حاجة إلى أن يطهو طعاماً مسلوفاً .. وكانت رائحة الطعام السلوق تضايق الستة الآخرين في غرفه .. فهي تذكرهم بالمرض والمستشفيات فكان يذهب إلى تحت سلم حارة أخرى ويعمل الوابور والحلة وحتى لا يعود بالطعام إلى غرفه كان يأكله في الشارع .. أكثر الحجاج كانوا ينامون في الخيام .. والخيام عبارة عن مخاني تحت الأرض .

ومفروض أن يقضى الإنسان كل احتياجاته في هذه الحيايم . . كلها . . وليس من حقه أن يسأل : ولماذا يتجه البول وغيره إلى الأماكن المخصصة للنوم . . ولا يتنظر الجواب طبعا . لأن الأرض منحدره . ولأن انحدرها لب ما يتجه ناحية قطاعات النوم . . وقد رأيت بعض الأندية الرياضية الكبرى في مصر تقيم عليها كبيرا خائفا . . ولكنه أحسن بكثير جدا من النوم في العراء . . أو النوم في الحرم أو أمامه . .

وتبدو صور الأزمات بارزة صارخة في منطقة منى حيث يجب أن يتوجه الحجاج لإلقاء الجمرات . . في هذه المنطقة لا يوجد إلا فندقان . أحدهما هو أغلى فندق في العالم كله . . والآخر أرخص منه قليلا . الأول هو فندق التيسير . . والغرفة بمشرة آلاف ريال لمدة ثلاثة أيام . : أى ما يعادل ألفى جنيه . . وحجة الفندق أن الفنادق قليلة . وأن هذا عرض وطلب . وأن هذا الفندق لا يتفتح إلا ثلاثة أيام فقط من كل سنة .

والباقي بيوت لضيافة الوزارات المختلفة ثم هناك « السيل المصرى » . . أو التكية المصرية . .

وهذه مهزلة أو مأساة أخرى سوف أعود إلى الكتابة عنها على حدة . . فلا هي سيل ولا هي مصرية . . بل لاسيل إلى السيل المصرى
ويجب أن يضاف إلى هذا كله الاستغلال الفظيع الذى يتعرض له الحجاج . فالمطوفون يستغلون الحجاج وأصحاب البيوت أو البسيونات . . ويفرضون عليهم أوضاعا لا يمكن احتمالها . . أعرف صحفيا مصرية أرغمه صاحب الفندق على أن يكون السابغ في غرفة بها ست سيدات باكستانيات ورفض وفضل النوم أمام الغرفة . فجاء صاحب الفندق بامرأة سابعة وحشرها في الغرفة ! . .
ويجب أن تكون هناك حلول تتعاون فيها الدول الإسلامية ! .

مأساة الغد

يقدر ما هناك أشكال وألوان من الثراء . هناك أضعافها من الجوع والعطش والمرض والمري . . .

من عشرين عاما اندهشت جدا ، عندما ذهبت إلى إحدى قرى مصر فوجدت فلاحا مكسحا يجلس إلى جوار الحائط ، وقد نام في الشمس ونام عليه الذباب ، وإلى جواره نامت أوزة . . والأوزة مربوطة في رجله . . ثم إن هناك مسمارا قد نفذ من رجلها إلى الأرض حتى لا تتحرك . فتمتلئ بالشحم واللحم . ثم إذا باضت فإن البيضة لا تذهب بعيدا .

وقيل لي أن هذا الرجل يعيش على هذه الأوزة . فهذه الأوزة - إذن - هي المصنع الذي يتج له البيض الذي يشتري به الشاي والسكر والأرز . . وإذا تعب من ضعف إنتاج المصنع باعه واشترى أوزة أخرى . وهكذا - وقلت يوما : أن هذا هو منتهى الفقر !

ولما ذهبت إلى الهند وجدت أناسا لا يحدون السكر وإنما يضمونه طعاما للنمل .

لأن النمل مقدس . . .

وعندما ذهبت إلى هونغ كونج - تلك الجوهرة في الوحل - حيث يوجد أغنى أغنياء العالم وجدت منطقة عاتمة اسمها « إيردين » . . عبارة عن زوارق يعيش فيها الناس بمتات الألوف . الزوارق قدرة متآكلة . . وفي هذه الزوارق يتوالد الثامن . ومن بينهم فتيات صغيرات ناهات جميلات . وهذه الفتيات يخرجن إلى عرض

البحر . . وتنقل لمن سلام السفن وتختل الفتيات في أحضان البحارة وساعات وأياما . . ويظل الأب والأم في انتظار عودة الفتيات وقد يتفق الأب مع البحار على إبحار ابته أسبوعا أو شهرا . . أو على بيعها تماما .

ولما ذهبت إلى جزيرة مندناوف الفلبين جلست على شاطئ المحيط . . واقتربت الزوارق . . وراح الأطفال الصغار يلقون بأنفسهم تحت الماء ، يستعرضون القدرة على الغطس وضبط النفس . وكنا نلقى لهم بالفلوس . . ويتفص الأطفال عليها تحت الماء . . أعجب من ذلك أن طفلا كان يحمل أنخاء الذي لم يتجاوز ستة شهور وينطس به تحت الماء . وكنا نفرع ونصرخ ونرجوه ألا يفعل ذلك . ولكن الطفل الصغير لا يشكو ولا يتململ .

وكلها درجات من الفقر . .

وفي العدد الأخير من مجلة « اليونسكو » صور ومقالات وأرقام عن أناس قد بلغوا غاية الفقر والجوع والعطش واليأس ، وفي طريقهم إلى الانقراض لا محالة . إنهم سكان منطقة واسعة مساحتها أربعة ملايين كيلومتر . هذه المنطقة الصحراوية الجافة لها اسم غريب : الساحل . . يسكنها جماعة من البدو اسمهم الطوارق . . هؤلاء الناس لا يمدون شيئا يقيم أحياء . . الماء يعتصرون السحاب . . أو يملأون أفواههم بالرمال المبللة من موريتانيا غربا إلى السودان شرقا وجنوبا . إن شكل الرمال والعراسف ووجوه الناس وعيون الأطفال وصمت الإبل كلها مترادفات تفرعك . . .

إنني أعترف أن ردي قد جف وأنا أقرأ مآسى ندرة الماء - ولا أظن أن العالم الذي يطفح بالخيرات شمالا وجنوبا في أفريقيا نفسها . لا يستطيع أن يتقل حصة ماء . إلى الضائعين التائبين الصالحين الذين هم وصمة عار في وجه الإنسانية كلها . . ودعوة بليغة إلى أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له - وهو من المؤكده شيء كثير !

دعوة إلى الصدق

إنني أكره التصريحات التي تقول : انتهى أى شيء - إذا كان المقصود هو الخلل أو القوضى أو التكدس في أى مكان .

لأنه ليس من الممكن إنهاء أى عيب من العيوب بمجرد أن يصدر قرار وزارى . فليست المشاكل بهذه السهولة . وليست قرارات الوزراء بهذه القوة الحرفية . .

ومن آمال الناس والحكام معا أن ينتهى كل شيء بهذه السرعة . أو يطلع النهار على الشوارع فتكون نظيفة . وعلى الأتوبيسات فتكون نظيفة منظمة مريحة لكل الناس . أو تدب الحرارة في التليفون . . كلها آمال طويلة من عشرات السنين عريضة لأنها باتساع البلاد ويعدد الناس .

وليس من حسن التقدير أو وضوح الرؤية أن يقول أى أحد : أن العمارات سوف تصبح لكل المواطنين . وأن الأرض الزراعية سوف تزايد بنسبة عدد السكان . . وأن المدارس والمستشفيات والمواصلات سوف تخصص مقعدا وسميرا لكل مواطن في أى وقت . وأن ذلك كله سوف يتم في يوم وليلة .

إن هذا ، تسهيل للمشاكل المعقدة . وهو في نفس الوقت سوء تقدير . لأن الذى تعانيه مصر ليس من صنع هذا العام ، وإنما من عشرات السنين . والعيب ليس ماديا فقط . . وإنما هو عيب معنوى أخلاقى مثلا : أن يمسك طفل طوية ويلقيها على السيارات . . أن تمسك عقب سيجارة وتلقى به من البلكونة . . أن

تنفس في البيع . . أن تنفس في الامتحانات . . أن تنفج على كل ما يجري في بيتك
وشارعك وبلدك والعالم كله من حولك دون أن يترك شيء . . وأن يكون شعارك
ما قاله جحا أو ما قيل على لسان جحا : اللهم أن تكون النار بعيدة عن ثوبي . .
ولكن لا ييم أن تحرق النار الدنيا كلها !

إن من عيوبنا في مصر أن ننظر إلى أشياء على أنها مستحيلة التحقيق ، وبذلك
ينسد باب الأمل أمام أي إنسان يحاول أن يكون له رأى أو له موقف . .
ومن عيوبنا أيضا في مصر : أن ننظر إلى الأشياء على أنها ممكنة . . وأنه
لا يوجد شيء مستحيل . وأن هذا المستحيل سوف يصبح ممكنا بسهولة . . وبمبنى
البساطة . . أي بالفهولة . . وأنه لا أحد أحسن من المصريين ولا أذكى ولا أخف
ولا ألطف ولا أجده . .

وهذا الفهم المتطرف لأنفسنا ولغيرنا هو أساس الخطأ في سلوكنا العام ، فنحن
لا نحترم العلم بدرجة كافية ولا نحترم الخبرة أيضا . . وإنما نرى أن القليل من العلم
مع الكثير من الشطارة يكفي جدا . وأن المثل الذي يقول قيراط حفظ أفضل من
قدان شطارة - هو مثل مصري صميم .

ومثل هذه التصريحات هي نوع من الشطارة . . وليس دليلا على العلم ، أو
على الفهم ، أو على حسن التقدير وهي تصريحات تليق بالمواطن خير المسئول . أكثر
بما تليق بالمواطن المسئول عن الجميع . . ومثل هذه التصريحات تصدم الناس في
الحاكم وفي الكلام ، لأنها لن تتحقق بهذه السرعة ، وبعد ذلك يعود إلى التامس
الشك القديم في كل ما يقال . وهذا ما نسعى أن نتخلص منه جميعا سائمين
ومحكومين !

مروء . . مروء

هناك حلول كثيرة لمشاكل المروء . ولكن لا توجد حلول كاملة . ولا حلول يستريح لها كل الناس . الذين يملكون السيارات والذين يسوقونها والذين يركبونها والذين يفزعون منها . وكل يوم يزيد عدد السيارات ويزيد عدد المشاة ويضيق الناس بالناس . . .

ولكن من بين الحلول التي رأيتها في بعض المدن الألمانية الهامة مثل ميون وكولونيا وهامبورج ومينخ أنهم يمنعون المروء في « وسط البلد » . أى أنهم يسدون الطرق في وجه السيارات ويتكون منطقة واسعة بلا سيارات . ويترعون الأرصفة من الشوارع . وتصبح الشوارع بلا أرصفة . . وفي هذه المنطقة يتحرك الناس على راحتهم بلا خوف من أن تلوسهم أية سيارة أو ترعجهم بصوتها . مع أن صوت السيارات من النادر أن تسمعه . : المرة الوحيدة التي سمعت فيها صوت أجهزة التنبيه كان في الإذاعة - أى من زاديو إحدى السيارات . . .

أما هذه المنطقة المتروعة السيارات وهي التي تعادل سليمان باشا وقصر النيل وبعض عماد الدين وعلى وثروت ، فقد تحقق لها الهدوء وتحققت الراحة لكل الناس . وخلت من الهواء الفاسد . وتحولت كلها إلى سوق هادئة رائحة لكل الناس . . وأصبح من المألوف أن يذهب الناس إلى هذه المنطقة لكي يتنشوا أو للراحة . . فالراحة هي الشيء النادر بين الناس . .

وفي مثل هذه الحالات إذا فكر محافظ القاهرة أو الإسكندرية في فرض الهدوء

على وسط البلد، فإن بعض الناس وبسرعة يقول : وكيف يمشى المرضى والعاجزين . . وإذا فرضنا أن شخصا ألغى عليه . . أو مرض وفي حاجة إلى طبيب فكيف نسحقه . .

وهي أسئلة وجيبة وليس لها أى معنى . لأننا نعارض كل فكرة جديدة أو فكرة معقولة قبل أن نفهمها . . ويمكن النظر إلى جميع المشاريع التى تحققت بنجاح . فهى لم تحدث لأن الذين فكروا فيها نفذوها ولم يسمعوإلى هذه الاعتراضات لجرد الاعتراض . . أو الرفض لجرد ألا ينجح أى مشروع . .

وقد لم تحدث هذه التجارب تماما لراحة الناس وهدوئهم . وإبعاد السيارات بهوائها المسموم عنهم . . وراحة المرور الذى يحتق ويختن فى وسط البلد وقلب البلد . وأحشاء البلد . ولذلك تتصلب شرايين المدينة وتصاب حياتها بالسكتة فى النهاية .

اعرف نفسك .. وطاقتك ..

أنت لا تعرف بالضبط ما الذى يمكن أن يخرج منك إذا تدربت على نوع معين من الرياضة . . إن التدريب يخلق منك إنسانا آخر . . هذا الانسان الآخر موجود فى داخلك . أنت لا تعرفه . .

مثلا . . مثلا . . إذا طاردك كلب فإنك تهرب منه وتقفز من فوق قناة عريضة . هذه القناة لا تستطيع أن تجتازها فى أية ظروف عادية . . لما الذى حدث ؟ إن إثارة عصبية قد منحتك هذه القدرة المفاجئة !

إن بعض الناس عندما تشعل النار فى بيوتهم تكون لديهم شجاعة خارقة . إن رجلا استطاع أن يقتحم النيران وأن يتخذ إحدى بناته . وقد لمحت ابته لأنه قفز من

عشرة أمتار . فمن أين جاءته هذه القوة ؟ إنها قوة كامنة في جسمه !
- إن الذين رأوا للمصابين بمرض (الأموك) المعروف في آسيا يلاحظون أنهم
يمحرون بسرعة تفوق سرعة الخيول في بعض الأحيان . إن هذا المرض قد وهبهم
طاقات نادرة .

كما أن الذين ينامون مغناطيسيا يتصلبون كأنهم ألواح خشبية . وفي استطاعتهم
أن يناموا على كرسيين متباعدين ولفترة طويلة يعجز عنها أكثر الرياضيين قوة .
وكذلك المصابون بمرض الكاتاونيا . . فمن أين جاءت هذه الصلابة ؟ إنها
خرجت من أجسامهم !

لقد أثبت التحليل الطيفي أن عظام بعض الرياضيين في صلابة الأسمت
المخلع . وهؤلاء الرياضيون لا يتناولون أطعمة نادرة . وإنما ما يتأوله الناس . فمن
أين جاءت هذه القوة الخرسانية ؟ من أجسامهم طبعاً !

فليس في أجسامنا قوى عضلية فقط . . وإنما فينا قدرات وطاقات تسمى
لا حدود لها . . ولكننا لا نجربها . . ولكننا لا نمارسها . .

لا نتيج لها الفرصة لكي يبرز فنحن أقدر على أن نتحمل أكثر مما نتصور . . ونحن
أقدر على أن نعمل أكثر مما نتصور . .

ولسنا في حاجة إلى كل الأطباق التي نأكلها ، ولسنا في حاجة إلى كل
الساعات التي ننامها ، فنحن لجهل أننا أقوىاء !

الإنسان حيوان مدمر ١

الإنسان هو أقوى الحيوانات ، لأنه عاقل فقط - فقد استطاع بعقله أن يتغلب على كثير من مصاعب الطبيعة التي حوله : البرودة الحرارة والجوع والمرض والمسافات . وعندما يفقد الإنسان عقله فإنه يصبح ضعيفا كأي حيوان آخر . ومنع ذلك فهناك حشرات استطاعت أن تقاوم كل عناصر الطبيعة وأن تتغلب عليها . فالخنافس - مثلا - وهي أكثر الحشرات انتشارا في العالم وأكثرها تنوعا ، استطاعت أن تبقى بملايين البلايين في كل مكان ، لأنها قادرة على التكاثر وعلى التغايش مع البيئات المختلفة . ولكن هذه الخنافس وغيرها من الحشرات والحيوانات لم تتقدم في شيء آخر . فهي هي منذ ظهرت على الأرض من ملايين السنين لا حياتها تغيرت ولا أشكالها تطورت ولا مساكنها تبدلت . . على عكس الإنسان . .

والإنسان يعرف معظم أسباب مرضه ومعظم أسباب قوته . ويعرف أنه سيموت لا محالة ولكنه يحاول أن يقاوم الموت . بينما هناك حيوانات قد اكتسبت عبر ملايين السنين مناعة طبيعية . ولا تزال هذه المناعة سرا لا يعرف أحد . فمثلا : العقارب تعتبر من أكثر الكائنات تحملا للأشعة الكونية والأشعة الذرية . وإذا كانت هناك أشعة ذرية قادرة على قتل الإنسان في دقيقة . فإن هذه الأشعة لا تقتل العقرب إذا تعرض لنفس الأشعة عشر سنوات . ولو أن قنبلة هيروشيما التي ألقيها الأمريكيان على اليابان قد انطلقت أشعتها على

مستعمرة للعقارب فإن هذه الأشعة تقتل كل كائن حي في طريقها ، وتبقى العقارب كأن هذه الأشعة نسيم عليل هزها برق ..

وقد اكتشف أحد العلماء القرنين أن هناك نوعا من العقارب في صحراء الجزائر لا تقتلها الأشعة الذرية المعروفة حتى الآن . فهل سبب ذلك أن بها نسبة عالية من السموم ؟ ولذلك تكون السموم سلاحا لوقايتها من الإنسان ومن الحيوان . وفي نفس الوقت سلاحا لوقايتها ضد أحدث الأسلحة ؟ ربما .

والعلماء - طبعا - سيقتلون مئات العقارب لمعرفة سر السموم التي تحملها للاستفادة منها في وقاية الإنسان من العقارب ومن القنابل الذرية . فإذا نجح العلماء في ذلك فسوف يبحث علماء آخرون عن وسيلة للقضاء على هذه الأسلحة الوقائية ويضئون في ابتداء أنواع من القنابل لحطم المناعة المستخرجة من العقارب . كأنه مكتوب على الإنسان أن يعيش في خطر .. في خوف من الإنسان . وكلما اكتشف الإنسان سلاحا ، راح يفتش عن الوقاية منه .. فإذا انتهى إلى الوقاية راح يبحث عن سلاح يحطم الوقاية .. كأن الحياة حرب علمية تلمس الإنسان بالخوف من الوقاية وبالخوف من العلاج ..

الرحمة أيها الإنسان

جريت منرات طويلة ألا أذوق اللحم .. ولا أعرف بالضبط لماذا فعلت ذلك ، أو اضطررت إلى أن أمتنع عن تناوله ، وكل ما أذكره الآن ليس شيئا مقنعا .. ولكن الذي يفعله الإنسان وهو طفل لا يقنعه وهو كبير .. ولا داعي لأن أذكر هذه الأسباب . ولكن أفهمل ما يقال إنني صدمت نفسي .. وكان من أثر الصدمة أنني كنت أنظر إلى اللحم على أنه نوع من جلد الأحذية . أو على أنه بقايا

جثة حيوان ذبحناه لأسباب غير إنسانية .

وأنه ليس من الرحمة قتل هذه الكائنات البرية . حتى لو كان غيرنا سوف يفعل ذلك - ووجدت مثل هذه المعاني مقنعة لشاب في الرابعة عشرة من عمره ! .

ولا أذكر الآن كيف عدت إلى تناول اللحم من جديد . لعل نسيت . . أولعل وجدت أن في الحياة أشياء كثيرة أقسى من أن يذبح الإنسان حيوانا . ووجدت من الناس من يذبح الناس ليعيش . ووجدت أن الإنسان في هذه الحياة . قاتل أو قتل . وأن الناس ضحايا الناس . وأن هذه هي الحياة . . وأن الذي يفعله الجزار كل يوم ، يفعله أى إنسان آخر . وأن الجميع جزارون في سلخانة اسمها الحياة ، وأن أكثر أعمال الناس تطورا وعنفا هو الحروب التي يستخدم فيها الإنسان عبقريته في القتل والدمار ، مستعينا بأحدث الأجهزة ، في جمع المعلومات وتخريب العقول وتخريف القلوب . . وأن الجزار بالقياس إلى هؤلاء جميعا . إنسان من أهل الكهف . . وأن ضحايا حيوانات تساعد في القضاء على الجوع . . وإن ذبح الحيوان أهون بكثير جدا من ذبح الأطفال الأبرياء والمرضى . . ويبدو أن هذه المعاني آتتني .

وقد قررت أن أمتنع عن أكل اللحوم . . ولا بد أن يكون هذا القرار سيه أنى لا أجد لها طعما خاصا . ولا هي ضرورة حياة أو موت . وأنه ليس صحيحا أن اللحم هو الذى يبق على اللحم ، وليس صحيحا أن الأبقار والجراميس والأغنام هي التي تجعل منى إنسانا عاقلا قادرا على أن يقوم بعمل إنسانى نبيل أو كريم . . وأن اللحم ليس سيفا على رقاب العباد . . وأن التعب والقرص والعذاب الذى في حياتنا لا ينقصه جزار أو تاجر جشع يفعل بنا ما يشاء . . وأن علماءنا يستطيعون أن ينشروا لنا في الصحف قائمة صغيرة بالأطعمة التي نعوضنا عن أكل اللحوم . .

وبساطة ليس هذا قرارا فلسفيا . ولكنه قرار عادى جدا يستطيع أى إنسان أن يفعله . . ولن يكون وحده فى هذه الدنيا فإن أكثر سكان الأرض لا يأكلون اللحوم : ٦٠٠ مليون هندي ، و ٤٠٠ مليون طفل وملهون مريض وألف مليون فقير !

قالوا :

اسمع يا أنت ! يقولها لك من يتركك أبضا !
الحكمة : قرار . . والجمال : وعد !
النحلة فى لها عمل وفى ذيلها سم !

عالم الحيوان

سوف تكون هناك حيوانات ضالة فى الشوارع . وفى القرى أكثر . هناك قطط وكلاب . وهناك كائنات أخرى ليس من السهل القضاء عليها مثل الفئران والصراصير وبقية الحشرات التى تمشى قرية جدا من الإنسان ومن طعام وملابس الإنسان ..

ولكن سوف يمىء اليوم - الذى جاء على كثير من الدول الأوروبية - فنقرض هذه الكائنات الضارة والمتطفلة على حياة الإنسان . وفى العصور الوسطى نحيل النام أن طفلا صغيرا راح يمسك مزمارا . ووراء هذا الطفل خرجت كل الفئران وتزلت معه إلى النهر وماتت جميعا . وهذا الطفل الذى يزمر كان اسمه : زمار هاملن !

وفى بلاد كثيرة يقتلون هذه الكائنات الضارة بالمبيدات المعروفة وأحيانا

بالموجات الضوئية المتناهية القصر . وفي اليابان يقتلونهم بالموسيقى . ونحن نتطلع إلى اليوم الذى يتحول الحال في الحقول إلى فرق فنون شعبية تغنى وترقص من أجل القضاء على دودة القطن . وفرق شعبية أخرى من أجل أن تبقى الغربان وأبو قردان وبقية الطيور أصدقاء الفلاح ..

ولكن لم أقرأ عن وسيلة للقضاء على الكلاب الضالة في مصر . فنو الليل لمجىء أفواج من الكلاب تنبح الأشباح ، أو توهم أصواتا . أو زواج بعيدة وتغوى عليها .. والنتيجة كل ليلة في معظم أحياء القاهرة : أن تتوقف كل الأصوات في كل مكان ولا يبق إلا صوت الكلاب .. وأصوات المفاتيح الصدئة تلخل الأبواب ويعلها تعالى الصبحات أو الحناقات ليلا لبعض الأزواج .. وعندما يهدأ كل شيء تشط هذه الكلاب مرة أخرى .

وكنيت أعرف أننا نقتل الكلاب بالضرب أو بالنار أو بجمعها في عربات ونقلها بعيدا عن عيون وآذان الناس .. وكنيت أعرف أننا نضع لها السموم في الطعام مثل مادة الاسكرتين .

وأقول وكنيت ، لأننى لا أدري ما الذى أصبح صعبا أو عصيا الآن .. بعد أن حدث هذا الانفجار السكانى للكلاب والقطط .

إنهم في حديقة حيوانات الجيزة لديهم أكثر من مليون فأر ولا يعرفون طريقة علمية للقضاء عليها .. فالقتران تأكل طعام الحيوانات . ويخافون إذا وضعوا السم للفران أن تموت في حظائر الحيوانات وتأكلها الحيوانات وتموت الحيوانات وتعيش الفران ..

وأعتقد أن هذا الخوف لا وجود له خارج حديقة الحيوانات مادام الغرض هو وقف الانفجار السكانى للكلاب والقطط فقط . وسوف يظل الناس يتجمعون من عراء الكلاب ومواء القطط وأشياء أخرى . مادامت ليست في خطورة قتران

حديقة الحيوانات - فالحيوانات في الحديقة أغل من الحيوانات الأخرى تخرج الحديقة !

قالوا.....

عندما نرود إنسانا فنحن نضيع الوقت - وقت الآخرين !
من أجل يد ناعمة ، يجب أن تعمل أيد قذرة كثيرة !
الحياة تغزلنا عن الأقلية ، والموت يضمننا إلى الأغلبية !

اليهود في كل مكان

من البدييات الآن وبعد كل ما حدث في العالم شرقا وغربا أن يقال : أن أي يهودى صهيونى . ما في ذلك شك . فاليهودى الرأسمالى كاليهودى الشيوعى ، كلاهما يخاص لإسرائيل ، أكثر من إخلاصه لوطنه الأم . لأن إسرائيل هى وطنه الحقيقى . هى حلم ألوف السنين . وغير صحيح أن يقال إن أي يهودى مزدوج الولاء . أى أنه على ولاء لأمريكا وإسرائيل ، وروسيا وإسرائيل . كذب وخداع . فولاؤه أولا وقبل أي إحساس آخر إلى إسرائيل . ولذلك ترك الأمريكان بلادهم ليعيشوا في إسرائيل . وترك الشيوعيون في كل الدول الاشتراكية ، وفي مقلمتها روسيا ليعيشوا في إسرائيل . وإذا كان بعض اليهود الروس قد عادوا إلى روسيا مرة أخرى ، فهذا يحدث بالاتفاق وعلى سبيل الدعاية . حتى لا يقال إن روسيا هى جهنم الله في أرضه ، وأن إسرائيل هى جنة الله . فكل ذلك نوع من الأكاذيب المضحك عليها .

ويوم نكمت مصر رقص الشيوعيون في رومانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفي

روسيا أيضا . لا شيء إلا لأنهم يهود ، أيا كانت مواقعهم الجغرافية وأنظمتهم السياسية ..

وقد حدث في سنة ١٩٥٩ أن انتشرت علامات الصليب المعقوف النازي على مقابر اليهود ومعابدهم في أوروبا وأمريكا . وكانت جولدا مائير وزيرة لخارجية إسرائيل . فأرسلت خطاب احتجاج لكل الدول التي انتشرت فيها علامات النازي ونهت إلى أن هذا مد عداوى ضد السامية ، أى ضد اليهود . وفي رسالتها تقول : إن الحكومة والشعب ينظرون بفزع إلى هذا الوياء الجديد الذى يذكرهم بماضيهم الأليم . وعلى الدول التي ظهرت فيها هذه العلامة ، بأحزابها وبجالسها البرلمانية وأجهزة إعلامها أن تعلم أن هذا العداء لليهود ، ظاهرة خطيرة . ويجب معالجة هذه الظاهرة الخطيرة بمنهى العنف . وهذه الرسالة غير تقليدية ولا مهذبة . فليس من حق إسرائيل أن تتدخل في شئون الدول الأخرى ، بل تترك لها أسلوب معالجتها . وقد احتج اليهود في كل هذه الدول على جولدا مائير لأنها أخرجتهم في وطنهم الأم . وأنه كان الواجب عليها أن تترك لهم مهمة التخاصم مع الحكومات . ولكن جولدا مائير ذكرت ما يتوقعه كل الناس منها قالت : أنه حيث يوجد مواطن يهودى واحد في أى بلد فأنا مسئولة عنه . وإذا تضايق اليهود من ذلك ، في أى مكان في العالم ، فليشيروا من البحرا .

وجولدا مائير كانت صريحة في ذلك . واعتقد أن اليهود أيضا يعلمهم ذلك . فهم في الدرجة الأولى مخلصون لإسرائيل يدفعون لها ويدافعون عنها . ولا يحرقوا واحداً - لأنه لا داعي لذلك - أن يعارض حلمه القديم : إسرائيل ... ولم يكف اليهود بذلك . بل إنهم انقسموا إلى ثلاثين أو أربعين حزبا وطائفة . ومنهم من يلجئ كراهية إسرائيل للتعبية دينيا وعنصريا ، أو تلك الترساة العسكرية .. لعل أحدا أن يقول إن في إسرائيل ممارسة لها . وهناك يهود يتظاهرون

بالتعصب للعرب . منتهى الكذب طبعاً .

وهم بذلك يحميرون الشعوب فيهم . ومن خلال هذه الحيرة تلغى الشعوب :
ولكنهم في كل مكان في العالم صف واحد وراء العسكرية العنصرية المتعصبة في
إسرائيل ، وضد العرب وكل الشعوب الأخرى .. لأن إسرائيل أولاً وبغدها طوفان
من الدم والدمار .

دائماً .. حائط المبكى

ان اليهود بعد أن انهدم عليهم معبد سليمان أكثر من مرة لم ينسوا ذلك ألوف
السنين .. ففي كل بيت - قبل سنة ١٩٦٧ - كانوا يتركون به كسراً في الحائط أوف
السقف .. أو يضعون حجراً .. أو صورة لجدار منهار .. ليتذكروا دائماً معبد
سليمان . وليتذكروا أنه لم يعد منه غير حائط المبكى . وأنهم لابد أن يستردوه .. وقد
رأيت حائط المبكى .. ولم يكن إلا جداراً قديماً تسللت من بين أحجاره الأعشاب
البرية .. وكان الطريق إلى حائط المبكى حارة ضيقة جداً .. وكان من عادة اليهود
الذين يزورون الحائط أن يقلبوه وأن يوشوشوا الحجز وأن يمسخوا به دموعهم ..
وأن يكبروا مطالبهم وأحلامهم في أوراق صغيرة ويتركوها بين أحجار حائط
المبكى .

تويوم دخل اليهود القدس تراحموا على حائط المبكى وألقوا بأنفسهم عليه ..
وعنده وأمامه وفي ترابه وعليه .. إنه حلم ألوف السنين .. وجاء رئيس دولتهم في
ذلك الوقت وهو رجل ملحّد ، ولكن تمسح في الحجر .. ومن وراءه الوزراء
والضباط . ولم يكن ذلك إلا حائطا في معبد متواضع المساحة والشكل .. ولكنه
الحلم والأمل والرمز ! .

ويوم تروج ابنة واين موشى ديان في مدينة غزة ؟ انكسرت الزجاجات
والأكواب تحت أقدام الجميع . ولم يكن ذلك إلا رمزا للمعبد الذى انهدم ..
والذى يجب ألا ينساه أحد في ماتم أولفرح !

إنهم يستحقون العقاب

مئات الألوف من الشبان سافروا ويسافرون هذا العام إلى الخارج .. والسفر إلى
الخارج هو بعثة دراسية حرة .. ولأنها حرة فهي محمقة . ولن تظهر نتائجها اليوم
أو غدا . ولكن سوف تظهر نتائجها حتما . فهؤلاء الشبان هم رجال الغد : مدرسوهم
ومهندسوهم وأطبائهم وجنودهم وضباطهم وحكامهم . وأزواجه وآباؤهم .. وما داموا قد
رأوا الدنيا ، فانهن لن يجرموا أولادهم منباء وما داموا قد رأوا الأفضل فسوف
يتطلعون إلى كل ما هو أروع وأنفع لبلادهم .. لمصر ومستقبل مصر .

وسوف يقارنون بين بلادنا والبلاد الأخرى . وسوف يعرفون لماذا تتقدم
الشعوب ، ولماذا هي بيوتهم نظيفة وشوارعهم وملابسهم ، ومصانعهم .. ولماذا
هم متحضرون . ثم كيف تكون مثلهم . وسوف يدركون أن الإنسان هو الإنسان في
كل مكان . وأنه من الممكن أن يكون متحضرا . وأن الوطنية لها ألف معنى . وليس
معناها فقط أن يتحول الإنسان إلى لسان طويل يدافع عن بلده . وإنما الوطنية
عمل متواصل في أى موقع . فالتاس خارج مصر يفعلون ذلك . وليست للتاس
قدرات خارقة . ولكنهم أناس مثنا . إذا تعلموا شيئا ثم آمنوا به وطبقوه أصبحت
قدراتهم خارقة .

ولأنهم شبان صغار ، ولأن مجاربهم في الحياة المستقلة محدودة ، لذلك من
الممكن أن يخطئوا - ولا أحد لا يخطئ - وقد وقعنا في مأزق كثيرة عندما سافرنا إلى

الخارج لأول مرة . ولكن الإنسان يتعلم من أخطائه ومن أخطاء الآخرين . وهي أخطاء يقع فيها بحسن نية . وهي أخطاء ضرورية بالنسبة للتجربة الأولى والمرحلة الأولى . ولكن هناك بعض الشبان عندما يحملون أنفسهم وحدهم فإنهم يفتنون تماما . ولا أحد يستطيع أن يوقفهم . فإذا حاول أحد تمادوا في ذلك . وهذا الطراز من الشبان هو الذي يضر بنفسه ويسمته بلده . وهو الذي يستحق العقوبة . وأنا أعرف عشرات الأمثلة الفاضلة .

ولذلك فأنا أؤيد معاقبة كل من يسىء إلى مصر . وأقصى العقوبة ألا نسمح له بالسفر مرة أخرى .! وأعتقد أن الحرمان من السفر هو أقصى درجات العقاب لشاب رأى ويريد أن يرى أكثر . فليس من حق أى شاب أن يسىء إلى كل شباب مصر وإلى كل مصر . فهذه جريمة لا تستحقها مصر من واحد من أبنائها .

أوجاع الشيخوخة

ما الذى تريده لشيخوختك ؟ هل تريد أن تقضى هذه الشيخوخة في المدينة .. أو في الريف . في بيت صغير حوله حديقة . بين أولادك أو بين أحفادك . في الصلاة . في القراءة . في النوم . في الانسحاب من الحياة نهائيا ؟
وعما لم يخطر على بالك هذا السؤال لأنك ما تزال شابا . أولئك بلغت الشيخوخة ولا تريد أن تعترف بها . ومن الأفضل ألا تعترف بأنك شيخ . فقد استطاع الكثيرون من الشيوخ أن يحققوا المعجزات في الأدب والفن والعلم والاكتشافات والمغامرات . وكان هؤلاء الشيوخ قد أخذوا قدراتهم الخارقة على شكل قوى احتياطية . وعندما انفقوا كل قدراتهم الظاهرية ، استدعوا هذه القوى الاحتياطية . فاعادت إليهم شبابهم العاقل . بعد أن بددوا شبابهم المجنون قبل الشيخوخة !

إننا - الذين لم يشيخوا بعد - تصور أن الشيخوخة هي انسحاب من الحياة . انسحاب يائس . انسحاب الإنسان المفلوج المفروز . وأن الشيخوخة هي الإدراك الحقيقى للحياة وهدف الحياة ، وأنها فترة الانتظار القانع الذى يسبق الموت . ولكننا عندما نفكر فى الشيخوخة الآن ننظر إليها كرجال متعبين مرهقين خادعين ومخدوعين كارهين ومكروهين . . . وأن تمنى أن نستريح من هذا الصراع بالزهد فى الدنيا كلها .

ولكن الشيوخ لا يفكرون فى ذلك أنهم يمتنون أن تعود بهم المعجزة إلى حياتهم من جديد مما كانت متاعبهم ومما كانت أوجاعهم فأوجاع الشباب يشفيها الثرم ومتاعب الشباب يخففها النسيان ولكن أوجاع الشيوخ لا يخففها شيء وأمراض الشيخوخة لا علاج لها .

هل تعرف ما الذى يفعله الشيوخ هنا فى سويسرا ؟ إنهم يشتغلون فى ترويض الكلاب وفى العناية بالأطفال بدلا من الأمهات وبعضهم يذهب إلى مدارس الحلاقين ويجلس لكنى يترنن فيه الطلبة مقابل مبلغ من المال !
فعندما أكون شيخا مأكرون نادما ولاشك على أننى لم أستمع بشباب القلب والعقل فقد ولدت لأحبر على أبواب الشيخوخة !

شيء من الجدية . . .

أذكر عبارة للبابا يوحنا الثالث والعشرين يقول فيها : الإيطاليون يخربون بيوتهم بالنساء والقمار والزراعة وقد اختارت اسرق أطول الطرق إلى ذلك !
ولنساءنا ما الذى يخرب بيت المصريين أو يفسد حياتهم كلها لقلت :
التواكل والاستخفاف والزحف فالمصريون يزحفون بسرعة وليس عندهم صبر

١ على الاستمرار . فلا يكاد الواحد منهم يبدأ مشروعاً بجد ، حتى تنخفض درجة حرارته ولا يكمل ما بدأه . ولذلك فهناك مشاريع كثيرة التهمت لها قلوب الناس ، ولم تَرَ النور ..

وربما هذا هو الذى قصده الشاعر شوق عندما وصف مصر قال : كل شيء فيك ينسى بعد حين - أى يتذكره الناس بجمرة ، ثم ينسى الحرارة ينسونه .. ولكن لماذا ؟

لأن روح الجديدة ليست متطورة . فإذا أعطيت نفس الفكرة أو نفس المشروع لواحد أو روى فإنه يقترب من الفكرة بحذر . ويمسك ورقة وقلما ويسأل : كيف يمكن أن يفهمها ؟ ومن الذى يمكن أن يعتمد عليهم ؟ وهل هناك كتب للقراءة عنها ؟ وكم تحتاج من الوقت ومن المال ؟ ومتى يبدأ فى ذلك .. وما هى المشاريع الأخرى المشابهة أو المتعارضة ليقارن بين الجميع . ويبحث لماذا لم تنجح وكيف تنجح .. لأنه من الضرورى أن ينجح أى إنسان ولكن ليس غريباً علينا أن نجد واحداً منا يقول لك : يا عمى .. يا سبلى .. اقبل الباب الذى يحى منه الريح إلخ .

إذن كيف تتصور أن تنحل مشكلة أو كيف يمكن أن ينهض مشروع ، أو تنهض مصر كلها .. لقد تواكلنا كثيراً جداً . واعتمدنا على غيرنا وقد يكون هذا الغير هو الأجنبى أو هو المحتل لبلادنا .. أو يكون هذا الغير هو الدولة . مع أن الدولة هى الناس . مثلاً : إلقاء الزباله فى الشوارع .. نظافة الجدران .. احترام القانون أو النظام .. قتل حنفيات المياه .. اقبال البوتاجاز .. من الذى يجب أن يفعل ذلك . الجواب : نحن . ولكننا بدلاً من أن نقول لأنفسنا أن نترك المياه مفتوحة ليلاً ونهاراً يرهق الدولة ، فإننا نقول : الدولة يجب أن توفر الماء ومحطات ضخ المياه .. وأن تجعل أنابيب البوتاجاز محكمة وأن يكون لكل أنبوية « منظم » دقيق مستورد .

.. ولا بد من تغيير هذه العيوب الأخلاقية والاجتماعية والتربوية حتى لا تحرب مصر وتتهم غيبرا مع أن المتهم هو أنا وأنت !

ملاحظات صغيرة .. ولكن !

مصر كالقمر : من بعيد أجمل ..

قد جاء إلى القاهرة عالم مصري بعد عشرين عاما أمضاها في جامعات أوروبا . إنه لم يكن بعيدا جدا عن مصر . وإنما كان يقرأ وسمع ويتلفه ويتمنى لو يستطيع شيئا كثيرا من أجل مصر . وحمل كعبه وحزم شنطه وجاء إلى القاهرة في إجازة . وكان منظر الأرض والبيوت والأهرامات من الطائرة شيئا ساحرا . انها مصر وطنه وأمنه وأمله .. وفي المطار كان يتحرك بسرعة ألف عذر في الساعة . فكل ما يوجع عينه يمد له سيبا معقولا ، ويرى أن مصر مرت بمحنة طويلة عريضة . وأنها ما تزال تعاني وسوف تبقى طويلا مرهقة الأيدي والأرجل والمعدة والقلب .

وفي المطار كاد صبره ينغد عندما حاول أن يناقش الأشياء الصغيرة مع بعض الموظفين . مثلا : لماذا لا توضع لافتة تقول للناس : ان حقائب شركة الطيران الفلانية سوف تكون على هذا الجانب ، وحقائب شركة الطيران الأخرى سوف تكون على الجانب الثاني . وهذا يمنع اختلاط مئات من المسافرين الأجانب والمصريين .. إن هذه ملحوظة صغيرة ويمكن تحقيقها فوراً ، ولكن أحدا لم يهتم كثيرا- بما قال .. فذهب إلى أبعد من ذلك وسأل : إلى من أتوجه إذا كنت أرى ضرورة كتابة هذه اللافتة ؟ .

ولم يفهم معنى أن ترتفع الأيدي إلى أعلى ويتراجع الرأس إلى الوراء ، إجابة عن هذا السؤال .. فهل معناها : أن الحل عند الله .. أو معناها : كان غيرك

أشطر .. أو هل معناها : أن أحدا لا يهيم الأمر ، فجاوب : أن تسكت .. أو عد من حيث أتيت !

وكان العذر المقبول الذى اختاره واستراح له هو أن الموظفين مرهقون تماما .. ووجوه الناس تدل على أن شيئا عميقا قد طرأ عليهم .. لم يعد الناس ضاحكين . ولم يعد عندهم ذلك الشيء السحري الذى كان يجعلهم يتحركون بسرعة ويفعلون ما هو أفضل .

ولما روى العالم المصرى عددا كبيرا من الملاحظات على الذى رآه فى المطار فقد حساسه تماما عندما لم يجد أى صدى لما قاله .. ولو ظل يردده أياما متوالية . إذن فالتاس يعرفون ذلك كله . سمعوه . قرأوه . زهقوا منه . ولذلك فلا يدهشهم شيء .. ولا يزعجهم شيء . وليست عندهم أية رغبة فى حل مشكلة أو علاج هذا الخلل فى كل مكان . فمن الذى يعيد إلى هذه المشاكل خطورتها ؟ من الذى يفصح هذه العيوب الإدارية والاجتماعية والأخلاقية فيجعلها بارزة أمام كل عين ؟ لا بد أن يحىء مصرى غيور من الخارج فىرى أوضح وأوقع ويقول للتاس : هنا .. وهناك !

ولكنه فضل ذلك ، فلم يهتم أحد به أو بما يقول !
وذهب الرجل إلى عشرات من زملاء الدراسة والأصدقاء والأقارب وقال وأعاد ما قاله عشرات المرات .. حتى تعب وزهق - كأنه استرد الجنسية المصرية للرهقة المكثودة . وبعد ؟ ..

إن حاجتنا هائلة إلى هؤلاء المصريين المخلصين فى تقديم وتصميمهم وأملهم فى علاج كل عيب فى مصر أنهم يتعذبون بالحب ، ونحن نتعذب بالعجز .. مصر على البعد أجمل ، ولكنها على القرب جميلة وغالية وأمانة ورسالة ..

مصر . . الشباب . .

جلست مع عدد من المصريين عندهم أمل !
.. فالأمل هو أعظم ما كياج أعطى للإنسان . إنه يجعل الإنسان رائعا : أكثر
خيوية وأكثر شبابا وأشد إقبالا على الدنيا .. أنه يصيغ الوجه بألوان وردية لامعة ..
ويضع في العينين شجاعة وفي العقل قدرة على الفهم السليم .. ثم أن الأمل يعطى
الإنسان هذه الطاقة العجيبة حل التضحية بكل شيء بما في ذلك الأمل !
.. هؤلاء المصريون كانوا في مويسرا وفي أمريكا . عندهم ثقافة وتجربة وحُب
شديد لمصر . ويريدون أن يروا مصر في رخاء أمريكا ، وفي صفاء مويسرا وفي علم
ألمانيا وفي حرية فرنسا وفي طيبة مصر في كل العصور ويسألون : كيف تسكون عن
فلان الذي أخطأ ؟ كيف لا يثور عليه الناس . كيف لا يلغته من لا يستطيع أن
يحاكمه . وكيف لا يعلمه من يستطيع محاكمته . إن مصر في حاجة إلى أناس
يقولون : « لا بشجاعة ويقولون « نعم » بشجاعة أيضا .

ونظرت إلى هذه الوجوه الشابة في الأربعين وأندهرش وتضاعف دهش .
كيف أن أحدا ما يزال يقول شيئا من ذلك ؟ كيف أن أحدا عاش سنوات طويلة
سعيدا هائلا غنيا في بلاد أخرى ويريد أن يعمل من جديد في مصر في ظروف أقسى
وأعقد .. كيف أن الذي يضغط على زوار فيجد كل شيء حاضرا جاهزا دقيقا
مضبوطة بلا ضوضاء ، يريد أن يدق الأبواب فتد أو لا ترد .. كيف أن هذه
النضارة تبحث عن الذبول والتجمدات والأرق والضعف من جديد .. ما اسم هذا

الجنون ؟ ما اسم هذه النصحيات ؟

ليس لها غير اسم واحد : ان هؤلاء الناس عندهم فائض أمل .. وأنهم جاءوا إلى مصر يريدون أن يشيعوا الحياة بين الناس .. يريدون أن يكون كل شيء ممكنا .. لمصر تستطيع أن تسترد ودائعها من الرجال في الخارج .. وأن أبناءها الذين تعلموا وتربوا يستطيعون أن يكونوا جيشا من الخبراء والعلماء والتجار من أجل مصر التي اختارت التفتح والانفتاح على الدنيا التي تعيش حولنا .. ونموت بيننا .. وكنا نضحك ونقول : من أين هبط هؤلاء الشبان .. كأنهم هبطوا من كواكب أخرى .. لإصلاح كوكب الأرض .. واختاروا مصر بالذات .. فقد حدث في التاريخ من ألوف السنين أن هاجرت كائنات أكثر عقلا وأكثر تطورا إلى كوكب الأرض .. وتركوا آثارا تدل عليهم .. ثم رحلوا عن هذه الأرض لأسباب لا نعرفها بعد .. أو أنهم هاجروا إلى كوكب الأرض .. كما هاجر أبناء قارة أوروبا إلى أمريكا وعمروها .. وظل سكان أمريكا الأصليون هنودا حمرا .. أو كما هاجر أبناء إنجلترا إلى قارة استراليا ..

لقد احسنت أن هؤلاء الشبان (اخوان كامل) - الذكائرة إبراهيم ومحمد وحلمى - هواك « اطازة » نزلت من الشجر فورا .. كلها لمعان ونضارة ونموذج لمئات الألوف من شباب مصر الناجحين .. قضيهم أمل مصر ..

مسافة العلم والعمل

لا تستطيع إلا أن تقارن بين مصر وبين أى بلد آخر ترويه ، وإلا أن تكون ظالما ، تنظم البلد ثم تنظم مصر . ونحن مبالون بطبعنا إلى أن ننظم مصر . أى ننظم أنفسنا . لتزداد أسى وحزنا ، وهذا الأسى أو الحزن هو المزاج العام للمصريين . ففى أنفسنا مثلا .. يمكن أن نقول : هه .. فاضل لنا كثير جدا .. أين نحن من هؤلاء .. إنهم من ثلاثة قرون كان عندهم صبرى اسمه موتسارت .. صبرى بكل الموازين والمقاييس ، شاب مات عن ٣٦ سنة بعد أن ترك للإنسان ٦٠٠ عمل موسيقى ، وفى كل مرة نسمعه نجد شيئا جديدا .. كان مابقا لعصره متقدما على كل الدنيا .. ونحن ..

ولا نكاد نقول : ونحن ، هذا حتى ينشجر المصريون كل واحد يضع يده على جعب ويقول : آه المواصلات .. الجمعيات .. اللدنة .. الفساد .. الانحراف .. اليهود والقذافي .. والمستشفيات والدكاترة .. ومواعيد الطائرات .. ولون أحجار منظار القاهرة .. وشوارع مصر .

وبسرعة ينقلب الكلام إلى مأساة .. وإلى حفلة تأبين للحاضر مصر ومستقبلها . وبالاختصار لا أمل فى شيء ، وأنه من الأفضل لنا جميعا أن نختار بسرعة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود وتدفن أنفسنا فيه . وبسرعة جدا وكان هذا سوف يحدث يقول الجميع : تدفن أنفسنا فى أى مكان إلا البحر الأسود ! ولا معنى طبعاً من أن نتناقش فى قضية فلسفية وهى : أن الموت هو الموت ..

في البحر الأسود أوف البحر الكاريي . ولا بهم الميت أن يدفن ، لأنه لا إحساس عند الميت بشيء . وإذا مت أنا ماتت الدنيا كلها في رأسي وفي قلبي فدنيتاني تموت معي .

ويعود الكلام بشكل أكثر اعتدالا وتعقلا وظلما لأنفسنا فنقول مثلا : ولكن سيد درويش ..

إذن هو سيد درويش للمقابل للموسيقار موتسارت ، طبعاً ولماذا لا ؟ أن سيد درويش على قدرنا . نحن في عالم الموسيقى لم نتجاوز مرحلة سيد درويش . إنه مطرب وملحن . وكل الذين ظهروا بعد وقبل سيد درويش هم مطربون ومؤلفون للأغنية القصيرة ، ولا يوجد عندنا موسيقار : فنحن لا نعرف السيمفونية ولا نستطيع الأوبرا . هذا وزننا وهذا مزاجنا ..

وفي بلد الموسيقار موتسارت ظهر عشرات المؤلفين العظام في الموسيقى وفي الشعر وفي الأدب والعلوم وفي السياسة . والمانيا هي الدولة الأم للنمسا فظهر فيها العباقرة بالعشرات في وقت واحد .. بل لم تحتف العبقريّة الفذة في كل فروع المعرفة . فالموسيقيون من أمثال بتهوفن بالعشرات . والشعراء من مثل جيته بالعشرات والفلاسفة من مثل كانت بالعشرينات .. والعلماء من طراز هوبولت بالثلاثينات ..

فنحن دولة صغرى ، تاريخها عظيم طويل عريض ، ولكنها بمقاييس الفن والأدب والعلم العالمية متواضعة . طبعاً رأينا في أنفسنا مختلف تماماً أو على الأصح متطرف . فهناك من يقول إن مصر أم الدنيا ومن يقول إن الدنيا كلها أم مصر ..

ولكن إذا أردت أن تكون معتدلاً ومعقولاً وغير مريح للملايين قل أن المسافة بيننا وبين الدول الأوروبية المتحضرة مئات السنين بشرط واحد أن نتقدم نحن فوراً وعلى كل المستويات وأن يتوقفوا هم .

هل هناك أمل ؟ طبعاً هناك أمل بشرط أن يعمل كل الناس ويكون العمل عن علم . أى لابد أن يتعلم الناس ويعملوا . وإذا لم يتعلموا ذلك تجملوا وماتوا أو صاروا هندوا حمرا في الشرق الأوسط .

عظماء لكل العصور

ظاهرة عظيمة أن يظهر رجل عظيم في مجتمع . فيضئ للناس ويهديهم . ويرى الناس وراءه . هذه المسيرة نقطة تحول في حياة الناس . والعظماء أنواع : عظماء يصنعون تاريخهم . وعظماء يصنعهم التاريخ . أى أناس يغيرون الظروف وأناس يغيرون الظروف . . .

وفي الحالتين نحن أمام شخص مهم قادر على التغيير والتوجيه . وهو لذلك شخصية خطيرة . لأنه يملك اتخاذ القرار والتحكم في مصائر الناس . . . وكان هناك عظماء دائماً في كل العصور . وكانت هناك أخطاء عظيمة للرجال العظماء . فالعظمة فادحة الثمن . ورغم ذلك فالناس سعداء بالرجل العظيم . لأنه صورة لأحلامهم . ولأنه يحمل عنهم أعباء الفكر والحياة والأمان . وهو لذلك له الحق في أن يخطئ . ويكون الخطأ هو العقوبة التي يدفعها الناس ثمناً لأنهم سعداء - ومشوا وراءه - وهناك ألوف الأمثلة في تاريخ كل الشعوب . .

فاذا لم يكن رجل عظيم لما الذي يفعله الناس . بلاعظيم ؟ مثلاً : مات ديمجول ومن قبله كيندى وأدناور وتشرشل وهتلر وموسوليني وستالين ولينين وغيرهم من الطيبين والأشرار . فهل عاشت الشعوب خالية لأنها قتلت الرأس للمدير للفكر . لأن السيارة قتلت عجلة القيادة . . .

لاشك أن أخطاء العظماء حدث عظيم . ولكنه ليس حادثاً جسيماً فليس معنى

ذلك أن الشعوب يجب أن تلبس الحديد عليه مدى الحياة وإنما عليها بسرعة أن تجد البديل وألا تضع وقتها وطاقنها وتلطم خلودها وتشق جيوبها وتصيح بالسواد مستقبلها . . وإنما عليها بسرعة أن تنظم صفوفها وأن تحرص على ماعندها من طاقة . فالحياة قطار يساقط منه الناس . . سواء كان الناس هم الركاب أو الكسارية أو السائقين . . ولكن القطار يمضي ويتوقف ويستأنف السير . . ولم يحدث أن ماتت شعوب بسبب موت عظامها . . ولم يحدث أن عقت الأمهات فلم يلدن من هو أحسن أو أفضل أو أقرب الى ذلك . . أو هو نفس الطراز . ولكن يهدف أفضل . . أن الشعوب يجب أن تحرص على رجالها المختصين . وفي حرصها عليهم ، حرصها على أعز ما لديها . . على طاقتها على مسيرتها حرصها على الرأس أن يبقى عاليا ، هادئ الفكرة ، صاف النظرة ، حتى تصل إلى بر الأمان .

أنا نقبل هذه الأيام على أشياء جديدة . . إن بلادنا من حقها أن تنعم بالرخاء كشعوب أخرى كثيرة ، ان شعبا يجب أن ينعم بالسلام كشعوب أرهقتها الحروب والنكسات . . فليس من أهداف مصر أن تفوز في « أولمبياد » الحراب والدمار والمرض والجهل . والعالم من حولها يتعلم ويأكل ويشرب ويحلم بعالم أفضل !

الحرب والتسليحة

مالذي تشعربه وأنت تنفجر على فيلم عن الحرب العالمية الثانية أو الأولى أو حروب التحرير؟

أنت أمام قصة مدروسة محبوكة مركبة . أو بعبارة أخرى : كل شيء فيها مكثف . فوقت الفيلم قصير والأحداث كثيرة . والمتفرج مشلوع . وهذه الشدة النفسية يجب أن تنفجر في النهاية . فإذا انفجرت كان هذا هو الثمن الذي يتقاضاه

كل الذين اشتركوا في التصوير والتثيل والاعداد والاخراج والانتاج !
ولكن الشاشة التي ترى عليها أفلام الحرب ، ترى عليها أيضا أفلام رعاة البقر
والعصابات . وكلها مصنوعة بدقة وبراعة . وكلها تمثيل في تمثيل . فلا الذي
أصيب قد مات حقا ، ولا الذي مات لم يظهر في فيلم آخر ، أو ينقض بعد أن
تتحول عنه الكاميرا فأن - إذن - الحقيقة وأين التمثيل ؟ أين التاريخ وأين
النكتة ؟

من المؤلف جدا أن تفرج على الأفلام وأنت تأكل وتشرب ، وأن يجلس إلى
جوارك أطفال صغار . دون خوف . لا هم خائفون ، ولا أنت خائف عليهم . من
الخوف ، فأنتم جميعا تفرجون على حدوتة مثيرة . وتنتهي الحدوتة مع الأكل
والشرب وظهور إعلانات عن المأكولات والمشروبات والأغاني . . . وكلها مثل
أمواج البحر ، بعضها يسمح البعض الآخر . . . ولا نهاية للأمواج ، ولا نهاية للأفلام
والإعلانات والأغنيات يوما بعد يوم !

فإذا كان الغرض من هذه الأفلام هو « تبشيع » الحرب - إذا صححت هذه
الكلمة - فإن أحدا لا ينتظر إليها كذلك . وإذا كان الغرض هو هز مشاعر الناس
حتى لا تصبح حياتهم مملة ، فإن المزمع المستمر ، مثل الصراخ المستمر ، يمد الأذن ،
ومثل تناول الشطلة يجعل اللسان يفقد الاحساس بها وبأى طعم آخر . وكذلك هذه
الأفلام لا تجعل الناس يذكرون الحرب والدم والعنف ، وإنما يطلبون المزيد منها .
يطلبون الجديد من الأفلام المليئة بالثيرة الشهية : أي التي تفتح الشهية إلى الأكل
والشرب والنوم بعد ذلك انتظارا لأفلام أخرى !

على الصبر دلو . .

منذ سنوات جامنى رجل من أسرة سليمان . وهى أسرة عاشت فى ألمانيا أيام هتلر . وكان لهم سيمك ودور للسينا . ولا تزال السينا موجودة فى ألمانيا الشرقية . أما عميد الأسرة فهو موجود فى برلين الغربية وقد زرته فى بيته . . وأفراد هذه الأسرة المصرية قصار القامة ، سريعو النطق . ولذلك فبعض الحروف تتساقط ولا يفهمهم أحد إلا بصعوبة . . صحيح أن اللغة العربية قد التوت وأصبحت ألمانية المقاطع ولكنها عربية . .

هذا الرجل جامنى ممزق الملابس وممزق النفس أيضا . ويبدو أنه قد أنهى حسابه مع الدنيا كلها ومع الناس . فهو غير قادر على أن يضاهم مع أحد . وابتعد عن الناس . وأبعدوه عندما كانوا ينادونه : عبد العزيز الألمانى ! وأحسن أنه غريب عنهم . وانطوى على نفسه . وعلى صناعة الجلود التى يتقنها والتى أضاع فيها الكثير من المال . فهو رجل صاحب فكرة اصلاحية . فقد قام بعدة تجارب على تحسين صناعة الجلد فى مصر . وهو يقول : إن الجلد المصرى محتاج إلى طبخ جيد . وأنه هو شخصا قد جرب أنواعا من الطبخ ويريد أن يساعد أحد على إنتاج وجبات من الجلد المطبوخ لتحسين الأحذية والشنط المصرية !

وكان حديث الرجل دفاعا طويلا عن نفسه . . فأننا لم أقل إنه مجنون ولكن الناس قالوا . وهو يؤكد أنه ليس كذلك . ولم أقل إنه جشع يريد المال . ولكنهم وصفوه بذلك . ولم أقل إنه شاذ ، ولكن الناس قد وصفوه بذلك . ولم أقل فى

أن أمنعه من الدفاع عن نفسه . فأتانا لأعرف عنه أى شىء . يكفى جدا أنه انسان طيب . وأنه رغم كل شىء يريد أن يصنع من أجل مصر أحدى أمتن . وانه لم يكثف بالهلومة ، وإنما قدم تجارب وصفها وكتبها ويريد أن يعرضها على وزير الصناعة ومطلوب منى أن أساعده فى ذلك !

وأيامها أرسلت خطابا إلى وزير الصناعة . وتحدثت إليه . وأرسل الوزير فى طلبه وذهب الرجل . ولكن أحدا لم يسمح له بالدخول . فقد ذهب إلى وزارة الصناعة . واتجه إلى باب الوزير مباشرة . فنفوه . وحاول أن يقول لهم إنه على موعد . ونظر الناس إلى عينية الحمراءين وإلى ملابسه المزقة . وأبعدوه .

وكان يتصور أن الناس كلهم يعرفون أن الوزير قد بعث فى طلبه . وأنه صاحب اختراع يستحق الاحترام . . ولكنه عصى المزاج فخرج من وزارة الصناعة ، واتجه مباشرة إلى الورشة الصغيرة التى يعمل بها بعد أن ألقى خطبة فى الناس ، ولم يعرف الناس أن الذى سمعوه هو حكم الاعداء وأنه قد اخبرهم بالأسباب التى دعت له لأن يتعثروا . ومات الرجل . . وكنت قد نسيت ذلك إلى أن جاعلى واحد عامل احدىة يعيد مشروع عبد العزيز سليمان وتطوير صناعة الجلود فى مصر . نفس المشروع القديم . وسألت الرجل : وأنت أيضا عندك صبر على موظفى وزارة الصناعة ؟

- عندى .

- تستطيع أن تصبر كم يوما ؟

- هيه الحكاية فيها أيام ؟

- وأنت أيضا ليس عندك صبر

- يا بيه الواحد طلع من هدمه من جلده . .

- كفى . . كفى . . سوف أطلب لك الوزير وأنت قاعد !

-

وسام في الفضاء

أعرف بالضبط ما الذي يجري على رواد الفضاء قبل أن يقوموا برحلة الانتحار حول الأرض أو حول القمر - أو على سطحه . وهي رحلة انتحارية لأنه لا يوجد أى ضمان لعودتهم - هكذا أكد لي د . فاروق الباز . والذي يجري للرواد وعليهم هرش . لا يقوى أى إنسان على احتماله : إنهم يطهرون إلى ارتفاعات عالية وبسرعات هائلة ثم تسيطر بهم الطائرات فجأة . ويلقون بهم في الماء البارد ، ثم الماء الساخن . . ثم يطلبون إليهم عمل عدد لا يمكن احصاؤه من التجارب . . يمحونها ويسجلونها ويكتبونها ويحفظونها . . ويستغرق هذا التدريب الوف الساعات . . وحياتهم قاسية متشقة . وأهم من ذلك كله أنهم لا يلقون أى حافز مادي : . . على عكس ما يتصور الناس . . فهذه التجارب والتدريبات العنيفة التي تصاحب المواد الكيميائية المعقدة التي يتناولونها . لجعلهم آخر الأمر حيوانات إنسانية . . أو آلات ميكانيكية . ليست لها أية إرادة في ما تفعله . وإنما هي تطيع فقط . لأن العقل لا يمكن أن يقبل على مغامرة غير مضمونة تماماً إلا إذا كان محتلاً أو إذا كان مسلوا . وهذا هو بالضبط حال رواد الفضاء . . .

وأعجب من ذلك موقف الدولة الأمريكية منهم : فهم إذا سافروا إلى الفضاء الخارجي صرفت لهم الحكومة بدل سفر عادي جداً . . وهذا البدل مخصص منه « البيت » لأنهم ينامون في سفينة تملكها الدولة . . ومخصص منه الطعام لأنهم يأكلون على حساب الدولة هكذا قال لي د . فاروق الباز .

ولابد أن نتساءل : إذن ما هي الفائدة المادية التي يجنيها هؤلاء المغامرون المجانين أو الانتحاريون .

لا فائدة مادية . وإنما مركز أدهى قط . فالدولة ترى أنه شرف عظيم جدا قد أعطته لرائد الفضاء . هي التي اختارته . ودرسته . وطلّقتها إلى السماء . . هنا تنتهي مهمة الدولة وأقصى ما عندها من تكريم لأحد المواطنين . وبعد ذلك تبدأ مهمة هذا المواطن الأمريكي .

وعليه هو وحده أن يقوم « بتسويق » هذا الشرف الرفيع . . . فلي استطاعته أن يلقى محاضرات في الجامعات والمعاهد ، أن يؤلف كتابا . أو يشغل في إحدى الشركات . . أو يختاره إحدى الشركات رمزا لها أو تاجا على رأسها والشركة تكسب من ورائه ، وهو من وراء الشركة !

أما القلب الذي سوف يشربه رواد الفضاء في رحلتهم إلى السعودية وقطر فهو أن كل الهدايا التي سوف تعطى لهم - وهي عادة ساعات ذهبية ، يجب أن يردوها للدولة . لأن القانون الأمريكي يحرم على كل موظف أن يتسلم هدية ثمنها أكثر من ٥٠ دولارا . ولذلك سيصبح رواد الفضاء « شيالين » لهذه الهدايا التي سوف يسلمونها لوزارة الحرية التي تضعها في المخازن مع بقية هدايا مواطنيها . وبعد ذلك تباعها في مزاد في نهاية العام !

هل الدولة قاسية على جنودها ، أو أن جنودها سعداء بهذه التضحية من أجل الإنسانية . . أي بهذه القسوة عليهم وحدهم دون بقية الملايين من أصحاب الملايين في أمريكا :

النكته الدامية

كما هي العادة عند المحامين فإنهم يبحثون عن أية طريقة لتبرئة المتهم وهم يعلمون أنه ليس بريئاً . ولكنها براعة المحامي اللعب بعواطف القضاة . ومن بين الحيل القديمة أن يتهدى المحامي إلى طريقة تقنع المحكمة بأن موكله مريض ، وأن مرضه عقل أو عصبي . وأن هذا المرض هو الذى دفعه إلى ارتكاب الجريمة ، أى أنه ارتكبها دون أن يكون فى وعيه فالقاتل أو الجانى واحد آخر . وهذا الواحد الآخر « يسكن » جسم الجانى ويدفعه إلى اقتناء المدس والضغط عليه وإصابة الهدف . ويكون الهدف عادة شخصاً بريئاً ، ومن الممكن أن يتهدى المحامي إلى العكس : أى إلى أن القاتل يستاهل أن يلقى هذا المصير الذى يجب ألا يميز عليه أحد ! !

ولذلك ليجع محامون كثيرون فى ادخال موكلهم إلى مستشفى الأمراض العقلية بدلا من السجن أو المشقة ، فإذا حكمت المحكمة معتمدة على الطبيب النفسى بأن القاتل مريض أو مجنون ، كان المحامي قد حقق نجاحاً عظيماً ، وهذا النجاح يغريه بأن يكرر هذه الحيلة عشرات المرات . .

ومن مهازل العصر الحديث اغتيال الرئيس الأمريكى كينيدي . فالهجمات انتهت إلى أن القاتل ليس هو القاتل . . وإلى أن قاتل القاتل ليس هو أيضاً القاتل . . ولم يبق أمام القضاة إلا أن يعلنوا أن كينيدي قد انتحر . . وعلى ذلك يجب إخراج كينيدي ومحاكمته من جديد بتهمة اغتيال رئيس الولايات المتحدة !

وسوف تكرر هذه النكتة الدامية مرة أخرى مع محاكمة باتريشيا ابنة المليونيير هيرست . انها خاة مدللة . ويقال انها في طفولتها لم تسمع كلمة : لا . . فكل ما تشير إليه حاضر بين يديها . . هذه الفتاة قد انضمت إلى إحدى العصابات . واختفت . أو أخفوها . ثم اشتركت مع العصابة في الهجوم على أحد البنوك . ولكن لماذا تسرق ابنة المليونيير؟ لماذا لم تسرق من ثروة أبيها ؟

هذه هي الفلسفة التي دفعتها إلى الجريمة . فهي ليست مجرمة عادية وإنما هي مجرمة مثقفة . مجرمة صاحبة مبدأ ، فهي لا تريد أموال أبيها . والدليل على ذلك أنها لم تحاول الاعتداء عليه أو على ممتلكاته . وإنما هي تريد أن تؤكد لوالدها أنه إذا لم يتصلق بأمواله . بارادته . سوف يجد نفسه مضطرا إلى ذلك بالقوة . وأن ابنته هذه تعتق مذهب : يجب أن نكره الأغنياء على مساعدة الفقراء بالنار .

إذن الفتاة قد اعترفت بكل شيء ولكن المحامين لهم رأى آخر . وهم يرون أن الفتاة التي لها تاريخ لطيف رقيق وديع تتحدث لغة عربية لغة أدخلوها في رأسها وفي دمها بالإرهاب . بل أنهم لاحظوا انها لم تعاقق أمها بحرارة . وأنها قد قبلتها على جانب واحد من وجهها . وأنها عندما صافحت والدها كانت السجارة ترنح بين شفتيها . ويستتج المحامون وأطباء النفس أن هذا دليل قاطع على أن البنت مجنونة . وعلى ذلك فلا بد أن تبرئها المحكمة من كل التهم التي ألصقت بها . . .

وهناك رأى ظهر أخيراً جلت أن الفتاة عندها ازدواج في شخصيتها وعلى ذلك فاحدى شخصيتها هي المعتدية والأخرى مجنى عليها . وتستحق الرحمة وعظيم الاحترام والحنان .

إنها إذن - اليوم وغدا - ليست عدالة القاضى . وإنما براعة المحامى في العزف على القانون هي التي سوف تجعل « قاتل » الشواربى بريئاً نظيفاً كالشجرة عندما تمحرج من المعجين !

الشعر والحقيقة الكبرى

علمنى أبى كيف أتذوق الشعر وأحفظ ألوف الأبيات فى سن صغير وحفظت القرآن الكريم وأنا لا أفهم منه إلا القليل ، وأكثر الملاحظات حفظها قبل دخول المدرسة الابتدائية . . وكان أبى يرحمہ الله شاعرا رقيقاً وفى يوم ضبطنى أروى شعرا لا يعرفه هو وسألنى : من الشاعر ؟ قلت : محمود حسن اسماعيل وهذا ديوانه : أغانى الكوخ .

ولم يكن أبى قد قرأ عن الشاعر محمود حسن اسماعيل . وكانت لمرحى باكتشاف محمود حسن اسماعيل دون مساعدة من والدى هى التى جعلتنى أحفظ الديوان كاملاً . وقد فوجئ الشاعر محمود حسن اسماعيل عندما وجلتنى ، وهو لا يعرفنى - أروى قصائده مفتونا بها على مسمع منه ومن المرحوم كامل الشناوى . وقسمنى إلى الشاعر وكانت بداية صداقتنا الروحية .

وقد صلر للشاعر محمود حسن اسماعيل ديوانه الرقيق الشفاف (نهر الحقيقة) . فى هذا الديوان نغمة جديدة : أن الشاعر يصادق الحياة ويصدق عليها . وفيه نوبة من العذاب . فكل ما تمذهب به عاد إليه . فليس هناك شيء إلا الحقيقة . . أنا وأنت والحياة . والحقيقة أيضاً !

يقول :

وجودى حقيقة .

وشدوى حقيقة .

وما اشتقت دريا على ساعديه
تموت الحقيقة .

.. أغنى السراب لتنتش منه
ضفاف من النور تجلى طريقه
نخطت من راحته يروقه .

ونفنى شقوقه .
وتأني به راكما للحقيقة !
ويقول أيضا :

وجودى حقيقة .
وذاقي حقيقة
وأني على الأرض طير يبنى :
حقيقة .

ونور الحقيقة سر الحياة وسر الأمل
بغير الحقيقة كل المعاني : سراب
ومن دونها كل شيء : خراب
على الحب قامت أصول الحياة :
حقيقة

وبالخبر يسلى هواها هواه :
حقيقة !

ويقول :

حبيبي : حياة
وحبي : حياة

وق وجهه كل نور الحياة
وفيه الهوى والأمل
ويقول :

حياتي : حياة
وعمر جديد : أراه
لما فات منها : رحل
وما غاب فهو طريق الأمل
ويقول :

أرضى وما أقتلسها : حياة
تراها : حياة
وماؤها : حياة
وعيشها : حياة
نسبها : قبل
وأقضا : أمل

ويقول عن النهر :
سكونه : حياة
ونطقه : حياة

والموج فوق صدره : صلاة

وبقية الديوان غناق طويل وصلوات وسلام وتسليم لكل ما هو جميل وجليل
في الحياة . إن الشاعر مثل حاج طاف وتعذب ثم استقر على شيء واحد : أن
الحقيقة هي الله ، وأنا حقيقة لأننا مفردات للحقيقة الكبرى !

دنيا البيانولا

من الممكن أن يكون عندنا مسرح غنائى : مادام عندنا مسرح وعندنا هذا العدد الكبير من الأصوات . فإذا أعطيت لهذه الأصوات فرص أكبر وأجمل ظهرت أمامنا وفي آذاننا أصوات مصرية تستعيد الأغنية والقصيدة والأوبريت . وقد شاهدت مسرحية « دنيا البيانولا » وقد غنى فيها محرم فؤاد وعفاف راضى وآخرون . وقد وجد التام تغيراً واضحاً في صوت عفاف راضى . صوتها أجمل وأكثر امتلاء . بالضغط ما الذى حدث لصوتها أولادائها لا أعرف . ولكن أصبح صوتها أكثر نعومة أو أصبحت له « وبرة حريرية » . ولم تعد صارخة النبرة . وإنما أفلح الملحنون أن يقوموا بتعريب الصوت وتمصيره . ثم إنها أيضاً أصبحت أخف حركة . وهذا التغير السريع سوف يعطيها فرصاً أكبر على المسرح وعلى الشاشة . وهذا يدل على أن عفاف راضى قد استفادت من النقد الذى وجه إليها . وأهم ما فى النقد : أنها لا تنقف على قلميها ، وإنما على كفى غيرها . وأنها يجب أن تنقف على أرضها وبقدراتها . ومن هذا النقد أيضاً أنها أوبرالية الأداء . وأنها إذا أرادت أن تكون مغنية فلا بد أن تكون مطربة ، فيطرب لها من يستمع إليها . وأن تكون أكثر خفة ومرونة وحركة ، وقد استطاعت ذلك إلى حد كبير .

وعلى غير ما يتوقع التام . من محرم فؤاد أن يكون خفيفاً لطيفاً مثلاً ، فقد كان كل ذلك . ثم إن الأغنيات التى أداها كانت أرق وأنعم . إنه لا يزعم ولا يتشجع . وربما كان ظهور محرم فؤاد على المسرح الغنائى متأخراً . ولكن ما يزال هناك وقت

أمام حيويته وإصراره وإقبال الناس عليه . .

ومن المؤكد أن عمر فؤاد وعفاف راضى لن يبقيا طويلا على المسرح الغنائى ، فسوف ينتقلان بسرعة إلى السينما أو إلى الحفلات . ولكن على كل حال هذه فرصة للتدريب والمواجهة اليومية .

ولذلك أرى أن المسرح الغنائى سوف يجتذب عددا أكبر من الشبان الذين يغنون للفرق الموسيقية العربية . . فقيم مواهب ، ولهم أشكال متميزة . ويكفى أن ننظر إلى أفراد فرقة الموسيقى العربية أو فرقة التخت الشرق . إن المخرجين يدوونون بحثا عن الوجه الجديد الجذاب . والصوت المتفرد بمزايا خاصة . لا يقلد عبد الوهاب أو عبد الحليم .

لا بد أن عددا من المخرجين أو المؤلفين يطمعون فى ظهور أوبريتات أو أوبرات مصرية . ولا أعرف إن كان هذا ممكنا ، وإذا أمكن أن يستيغنه المستمع المصرى . ولكن من المؤكد أن الأغنية القصيرة هى أهم الأشكال الغنائية عندنا فهى أسلوب المطرب ، وهى أقصى ما يستطيع الملحن الآن - ولا بد أن تغيرا كبيرا سوف يطرا على هذا كله فى المستقبل القريب . .

وقد استمتعت بمسرحية « دنيا البيانولا » وضحككت كثيرا على أحد أبطالها فاروق نجيب . . ومن خلال الضحك المتقطع والحوار الطويل تجمىء هذه الأغنيات السريعة الظرفية ، فى اطارات المخرج الممتاز فى أحيان كثيرة : كرم مطاوع !

فلسفة التكرار

تابعت مستمتعا ندوة في صوت العرب من إعداد نهى العلمي عن الملحن الواحد للمطرب الواحد . وهل إذا تلازم لحن وصوت سنوات طويلة ، يؤدي إلى أن يمل الناس الاثنين معا ؟ إنها قضية ، قد تلازمت أم كلثوم والسنباطي ، وسلطان وفايزة وبلخ ووردة ومنير مراد وشادية . . كما تلازم الأخوان رحباني وفيروز لحنا ونظما . . .

بل إن محمد عبد الوهاب يلحن نفسه ، وكذلك فريد الأطرش ومحمد فوزي . . لماذا حدث ؟ إن هناك خوفا من التقاد على أن يكرر الفنان نفسه لأنه لا يستطيع أن يجد شيئا جديدا في كل مرة . وهذا التكرار يؤدي إلى أن « يزهد » المستمع ، وهي غلطة سببها التلازم بين الملحن والمطرب أو المطرب والملحن أو المطرب والملحن الشاعر في نفس الوقت !

ولكن أحدا لم يمل محمد عبد الوهاب ملحن لمجد في كل أغنية لحنا وموسيقى جديدة . . ويتعلق الناس بعبد الوهاب أكثر . ومن الطبيعي أن يكرر الفنان نفسه . فالقنان المبدع طائر له لحن واحد . ومعنى واحد يدور حوله دائما لعله يراه أوضح أو أجمل أو أعمق . .

فالقنان هو الإنسان الذي يكرر نفسه . . والحقيقة أنه لا يكرر نفسه ، وإنما يعدل نظره إلى نفس المعاني أو الأداء ، وتكرار الفنان ليس إفلاسا ، وإنما هي ملامح الفنان المعروفة تراها في كل أعماله ، تماما كما ترى شخصا واحدا في عشرة

أماكن في يوم واحد وفي أزياء متنوعة وفي مناسبات مختلفة إنه لا يكرر نفسه . وإنما هو شخص واحد في أماكن كثيرة . . ثم إننا عادة نطلب من المطرب أن يعيد المقطع الذي أعجبنا . أى إننا نطلب إليه أن يكرر نفسه لتزداد استمتاعاً به . وليست الأسطوانات والاشربة إلا حرصاً متجدداً على أن نسمع مرة أخرى ما أعجبنا أى أن نرى الفنان يتكرر أمامنا .

فليس التكرار هو الذى يضايقنا ، وإنما تكرار الشيء السخيف هو الذى يضايقنا . . ولو عدنا إلى أعظم المؤلفين للمسرح أو الشعراء أو الرسامين : لوجدنا لكل منهم فلسفة تدور حول معنى واحد يكرره . تماماً كما يكون عندنا طعام واحد فنضعه في الف طبق . . كل طبق من لون وشكل وحجم . . وفي مناسبات مختلفة . . إنه نفس الطعام ، ولكن الأشكال والمناسبات تتنوع .

فالناس قد ملوا حياتهم المتكررة ، ولذلك يكرهون التكرار عند الآخرين ولكن من المستحيل ألا يكون ! إن وجهك الذى تراه ولا تمله به : عيان وحاجبان واذنان وشفتان وعشرات الاسنان وأكثر من مليون شعرة !

الفن الجميل

قلبت في كتالوج للوحات الفنان النمسوى هوندرتفاسر . اللوحات جميلة . ولكن لا أعرف بالضبط ما معنى كلمة جميلة . أو ما الذى أعجبني فيها . . ولا أعرف كيف أنقل لك هذا المعنى دون أن أنشربعض اللوحات . . ولكن يحدث في حياتنا كل يوم : أن ننظر إلى السماء أو إلى النبل أو إلى الشوارع الخالية من الناس . . أو إلى الطرقات القليلة الأضواء ونقول : جميلة . . أو ننظر إلى طفل صغير يداعب قطعة أوكلباً . . أو قد نام على صدر أمه ونقول : جميل . . دون أن

تحدد بالضبط ما الذى نقصده .. ودون أن يطلب منك أحد شيئا من ذلك .. وكذلك توالى اللوحات بين أصابعى وأنا أقول : جميلة .. رائعة .. وإن كنت لم أشاهد هذا الممرض الفخم الفخم عندما أقيم فى القاهرة ..

وعدت إلى الصفحات الأولى من كتالوج الفنان النمساوى هوندر تفسر فوجدت مقدمة بقلم المستشار برونو كرايسكى . وهو يقول إنه ليس كاتبًا ولا ناقدًا فنيا ولكنه يضع وراءه لوحة لهذا الفنان . وقال إنه لا يعرف بالضبط معناها . ولكن فى كل مرة ينظر إليها يشعر بأنها مريحة .. أو أنها تعطيه شعورا بالأمن والأمان ثم يقول : من المؤكد أننى أشغل وظيفة هامة جدا . ومن المؤكد أن خصوصى السياسيين يرون أنها هامة جدا ، وإن كانوا لا يرون أننى أنا الشخص المناسب . إن هذه اللوحة تمنحنى الهدوء والشجاعة والخيال .

أما اللوحة التى وراءه على الحائط فهى مجموعة من الدوائر الحمراء الناعمة الملمس .. فقط هذه هى اللوحة التى أعطته الشعور بالراحة . والشعور بالراحة هو أنلر المشاعر فى عصرنا الحديث . فهنا أشكال وألوان وأحجام ودرجات من المشاعر العنيفة إلا الشعور بالراحة والارتياح والأمن والأمان والانطلاق بالخيال من أجل الإبداع ، لذلك كانت اللوحة للمريحة فى غاية الجمال . فالجمال هو هذا الشعور بالراحة والسرور معاً .

وكان لابد أن أنظر ورأى وأنا أكتب ما الذى أجده .. لا شيء إلا الكتب من السقف إلى الأرض .. ولا شيء إلا أنها فى حالة تريبس ، أى أنها تنتظر اللحظة التى تنطبق فيها على رأسى .. أى تقع فوق دماغى وليس أمامى أيضا إلا كتب من الأرض إلى السقف .. وإذا اخترت كتابًا واحدًا تتأثر تراب الكتب . وهذا التراب هو المسئول عن حساسيتى المستمرة .. فأنا أهرس فى رأسى وفى أنفى وفى عيني .. والسبب هو الكتب .. أو تراب الكتب .. أما هذا الشعور الهادئ التام الجميل

المبدع الذى يتحدث عنه المستشار كرايسكى فهو واحد من آمالى الباقية . وعندما أعدت النظر إلى اللوحة التى علقها المستشار فى مكتبه لم أجدها تشع هذا الهناء الذى يتحدث عنه ، إن الفن كالجبال والمال والفضيلة مسألة نسبية !

البؤساء

فى العصور القديمة قررت إحدى الدول القضاء على مشاكل الفنانين والأدباء . فألغت الأدب والفن . وبذلك تساوى الناس أمام الجبال وتذوق الحياة : الكل حيوانات !

هذه الدولة عندما يتفرج عليها السياح الآن فى بلاد اليونان يحدون وأدباً فصيحا عموماً بالجبال . وتمتد عيون السياح فلا يحدون أمامهم شيئاً يستحق الزيارة . وتمتد أيديهم إلى الأرض ويلق كل واحد حجراً على هذا الوادى الذى كان اسمه « اسبرطة » . وتكون هذه الأحجار لعنات جامدة طائفة استقرت على وجه اسبرطة كأنها بصقات الاحتقار عبر التاريخ !

فالفنانون والأدباء لهم مشاكل . إنها مشاكل أناس أعطاهم الله أكثر مما أعطى غيرهم من الحساسية والقدرة على التعبير ويكون التعبير جديداً . ويلتف حولهم الناس . ويعطونهم ما تحاول الدولة أن تقاسمهم فيه .. أو تحفظه منهم ، مساواة لهم بالناس ، وحققاً من موظفى الدولة على الأبناء الناجين فى كل عصر .

ومن أكثر من أربع سنوات ضجت لجنة الله على الأرض :- أقصد السويد :- لأن أحد أبنائها اللامعين قرر أن يترك بلاده التى ليس فيها جبال ولا عاطل ولا خائف ولا مظلوم .. لماذا ؟ لأن بلاده قد عاملته كأنه قد سرق أموال الشعب . فجمع منها الكثير . ولا بد أن تستولى الدولة على نصف الذى كسبه . ولم

يكن أسلوب رجال الفيراتب مهذباً ولا محترماً . فقرر أن يترك للسويد سعادتها بموظفيها . وصافر إلى أمريكا .

ووجه رئيس وزراء السويد نداء إلى المخرج الكبير برجان أن يعود إلى بلاده وأنه يعتبر له باسم الدولة عن كل ما حدث . وأن الدولة سوف ترفع عنه كل هذه الأعباء . وقال رئيس الوزراء : إنني أعتني على بلادنا أن يهجرها الفنانون . أعتني على اللجنة ألا تكون كذلك .

ومن المؤكد أن لبنان - رحمها الله من أبنائها - كانت جنة الشرق الأوسط . لأنها تعيش على سخافة العقليات في مصر . فكل القوانين المعقدة التي أصدرتها مصر حلتها لبنان . ويكفي أن نشر إلى ما أصاب الكتاب المصري وحده . قيود النشر والاستيراد والتصدير وإرهاب المؤلفين بالضرائب ، قد أتعش الطباعة والكتابة والتوزيع في بيروت . وإذا لم تتدارك مصر هذه الأخطاء الفادحة فإن بيروت سوف تتمسك أسرع مما يتصور . ويتحول المؤلفون المصريون إلى مهاجرين إلى بيروت وغيرها هرباً من الضرائب .

ملحوظة هامة جداً : إن كل الضرائب التي تتقاضاها الدولة من جميع المؤلفين - تساوى بالضبط ما تقاضته مطبعة مشهورة في لينة في كباريه في شارع الهرم .

عجبي !

فنان الشعب

هناك أكثر من سيد درويش ..

سيد درويش الفنان الشعبي الفقير الذي عاش في الإسكندرية . عاملاً - ميكيتاراً . طالباً تلميذاً . زوجاً وأباً محتاجاً . وهو في نفس الوقت فوهية مستقلة . ولكن هذه الموهبة لا تمجد ما تنفي به . وإذا وجدت - فإن الفرصة ضيقة . وإذا

سحت الفرصة فإن الرزق محدود .. وعاش سيد درويش في ضيق . حتى عمره كان مثل رزقه محدوداً قصيراً . فعاش سيد درويش ومات مقصوف العمر .. وألجان سيد درويش جميلة بسيطة . وكلماته لم ترق إلى هذا المستوى ، بل كانت ركيكة في كثير من الأحيان . وكان هو يجد لذة أو يجد نفسه مضطراً إلى تأليف كلماته .

ولكن سيد درويش نموذج للمصري الموهوب الذي شق طريقه في الفن وفي الحياة بصعوبة شديدة .. فأثار فينا الإعجاب والإشفاق .. وجاء زحله المبكر باعثاً على الأسى ..
وهناك سيد درويش آخر ..

وهو الفنان الذي كتبنا قصته وصورنا حياته الفنية على أنه فنان الشعب الأصيل . مع أنه لا يستطيع إلا أن يكون شعبياً . فلم يكن غنياً ألقى بالمال من أجل أن يشارك الفقراء ، ولا هو ابن ذوات ، ترك القصور ليقيم على الأرض - إيماناً منه بمذهب أوفلسفة . ولما أدركه ثورة ١٩١٩ أضالفت إلى ضيقه وتعباته معنى جديداً . وأعطته نوعاً من الثورية . ولما جاءت الثورة الشعبية الثانية سنة ١٩٥٢ أطالت عمر سيد درويش . وجعلته فنان الشعب الأول ، والذي تغنى بالناس الصغار : الباعة والفلاحين والموظفين . وخلق له الثورة طموحاً وتطلعات . وأصبح سيد درويش من ثمرات سنة ١٩١٩ ومن طلائع ثورة سنة ١٩٥٢ .
وهناك سيد درويش ثالث .. فالذين يعرفون الموسيقى والفناء .. ويقارنون بين المؤلفين والملحنين ، اليوم ، وأمس ، يرون أن سيد درويش فنان محظوظ بعد موته . وأن الفن والتاريخ الأدبي والفني قد أعطاه أكثر مما يستحق وأن سيد درويش قد كبر في خيالنا للدرجة أن فنانين آخرين قد أصبحوا أحراراً . وانتقلوا إلى ظل سيد درويش . مثلاً : سلامة حجازي أكبر وأعرض وأعظم وأعظم من سيد

درويش . وأنه هو الذى يستحق الاحترام وعظم اللوحات والخائيل والألقاب
والنياشين ..

وهناك سيد درويش الأب أو الزوج أو العاشق .. أو العامل .. أو سيد
درويش الذى يعرفه أولاده وأقاربه . إنه إنسان آخر ، لا هو فنان الشعب ، ولا هو
عبقرى العصور .. إنه رجل مضطرب مريض !

ومن المؤكد أن سيد درويش هو كل هؤلاء بدرجات متفاوتة .. فهو فنان
موهوب .. عاش معذباً ، واليوم يحاسب على ما فعل وعلى الذى لم يفعله .. أما
الإنسان نفسه فقد انتهى ، أما الفنان فعمره طويل وحسابه أطول !

قالوا ..

نوعان من الجمال : واحد يطلقك ، وواحد يفتلك النطق !
حمار تركبه خير من حصان يرفضك !
مرجبا أيها المرض - إذا كنت نجىء وحلك !

الخطأ الصغير .. لا يستمر

ولمحن نتمشى في شوارع برلين الجميلة سألت صديقاً قديماً : وما هي العادة
الأخرى السيئة التى يرتكبها الشبان هذه الأيام ؟

ولم يكن في حاجة إلى أن يفكر فقد كانت الإجابة جاهزة . وانتظر منى أو من
أى أحد آخر أن يسأله .. وإذا به يقول : أمامك .. ماذا ترى ؟

والفتت لأرى شباباً في غاية الهدوء والراحة . الفتيان مسلمون كل واحد في
حاله . قد أطال شعره ونزع بعض ملابسه . فالدنيا حر . ولكنه لم يترع ملابسه

كلها .. وإنما احتفظ بالكثير يستره . ويجعله محترماً . والفتيات جميلات . رشقات
باديات الضعف . وربما كان الضعف سببه الحرص على الجوع . والمثل يقول :
أحرص على الجوع يوجب لك الجمال .
وسألتني : هل لاحظت ؟

قلت : نعم إنه شيء جميل .
وصرخ يستنكر ما أقول أو ما سوف أقول . وقبل أن يلقى بضمة تحت إحدى
السيارات ، على سبيل الضيق بالأمر الواقع - الذي هو أنا - سأله : إن كان
لا يرى هذا الشباب والجمال في الناس .. والنظافة والنظام في الشوارع والمباني .
ولكنه لم يكن يرى شيئاً من ذلك .. إن الذي وقعت عليه عيناه هو أن الشبان
لا يحترمون معالم المرور . والتفت أرى الشبان عند أماكن المرور إنهم يقفون ثم
يشركون مع علامات المرور . ولكن يبدو أن واحداً أو ثلاثة لا يفعلون ذلك . هذا
صحيح . ولكن إذا أخطأ ثلاثة فإن ألوماً حريصون على الصواب ..

ولكن شكواه كيف يفعل ذلك ثلاثة . إن هذا لا يجب . فالذي لا يحترم
مصابيح المرور لا يحترم علامات المرور البيضاء ولا علامات الملاعب ..
ولا القواعد ، والذي يخطئ علناً وعلى مرأى من الناس ، ما الذي يفعله إذا لم يكن
هناك ناس .. إن الذي لا ينجله الناس سوف يفعل ما ينجل الإنسانية كلها ..
أما أنا فقد حصلت بلاده على الملايين التي تحترم النظام . ولكنه حزين على
بلاده لأن هناك مئات لا يحترمون النظام . ولكنه لا يستهين بهذه المئات ، لأن المائة
هي أبو الألف والألف هو أبو المليون .. وكل شيء يبدأ صغيراً ثم يشتد بين
الناس . فالأخطاء الصغيرة إذا تركناها كبرت وتحولت من أخطاء إلى خطايا والله
معك حتى أ .

النصف الحلو

من الحوادث الغريبة أن مهاجراً مصرياً أعلن في مجلة آخر ساعة عن رغبته في الزواج . وليس عنده وقت ليجد بنت الحلال . فتقدمت له مئات الفتيات . وكان من نصيبه أن يتزوج فتاة جميلة جامعية . وجاء بعد ذلك رجل استرالى يوغوسلافى مسلم اسمه عمر فرحات (٦٠ سنة) يريد أيضاً أن يتزوج فتاة أوسيدة مسلمة في الأربعين . وتقدمت للزواج منه سيدات كثيرات . وجاءت اللفة حلالاً بين إتمام هذا الزواج .

وهذان الحادثان فتحا باباً واسعاً طويلاً إلى عدد كبير من الرجال والشباب يريدون الزواج فعلاً . ولكن ليس عندهم وقت . أوليس عندهم فرص مناسبة لاختيار بنت الحلال . مثلاً : الضباط في الجبهة يريدون الزواج . هذا طبيعى . ولكن ليس عندهم وقت . فإجازاتهم قصيرة . والوقت لا يكفى اختيار فتاة .. ولذلك تنتهى الإجازة ونجىء إجازة أخرى ولا تزال الرغبة قائمة ..

تلقيت رسالة من أحد الضباط يقول فيها : « إننى كالمهاجرين في استراليا أريد بنت الحلال . ولا أعرف كيف أتعدى إليها . إن وقتى يضيع في المواصلات وفي النوم على سرير لين وفي السجن . ولا أكاد أخرج من السجن حتى أجمه إلى الصحراء .. إلى الجبهة .. وتغضى السنون ولا أجد بنت الحلال .

وتلقيت خطابات من أطباء ومهندسين ومدرسين .. وخطابات أخرى من فتيات جامعات يردن الزواج أيضاً .. وهن جادات في ذلك .

لما معنى هذا ؟

معناه أن الناس كثيرون في كل مكان . ولكنهم متباعدون . كل واحد مشغول بما في رأسه أو في قلبه . وهذا الزحام لا يعنى أن هناك صلات بين الناس . وإنما هم متجاورون .

قطر في المواصلات والشوارع والمطاعم والملاعب والسينات والمسارح .. ولكن أحداً لا يحدث أحداً ولا يرى به . إن الحياة الحديثة قد جعلت الناس ملايين الأفراد .. ملايين ولكنهم أفراد . ولذلك كان من الطبيعي ألا يجد الزاغب في الزواج عروسا وألا يجد الراغبة في الزواج حريسا .

ولابد أن يساعدهم أحد على إتمام نصف الدين . وفي كثير من الدول الأوروبية والأمريكية تنشر الصحف إعلانات الزواج أو نصفك الحلوة وتعقد لقاءات بين الجادين في الزواج .. وهم جادون ولكن الحياة تبعثرهم وتطردهم بعيدا عن أهدافهم الكريمة !

المهم ألا نتوقف

لا يمضى وقت طويل حتى نقول : إن هذه مرحلة .. وبعد فترة أخرى نقول : هذه مرحلة جديدة ..

ونصف كل حالاتنا بأنها انتقالية .

ولابد أن يكون المعنى في أذهاننا : إننا نريد أن نشعر جميعاً بأننا نتحرك . بأننا نتقل من حالة إلى حالة أننا انتقلنا فعلا . وبأنه من الضروري أن نتقل . ونحن نشبه الذى ينظر من القطار أو من السيارة إلى أرقام الكيلومترات لأنه يريد أن يشعر بأنه اقترب من هدفه .. أى أننا انتقلنا من الكيلو كذا إلى الكيلو

كذا.. أى أننا نطلق بسرعة أو ببطء نحو الهدف.. وهذا معناه أننا ندعو أنفسنا إلى الانطلاق.

وليس أسهل من الانتقال من مكان إلى مكان.. وليس أصعب من الانتقال من حالة إلى حالة أفضل.. فالانتقال في المكان.. تستطيعه سيارة، بل تستطيعه أقدامنا.. ولكن الانتقال من القوضى إلى النظام، من الكسل إلى النشاط، من الإسراف إلى الادخار من الطفولة إلى الرجولة.. من الانتظار إلى الاستعداد.. من الاستعداد إلى التقدم - كل ذلك يحتاج إلى جهود كثيرة متضافرة.. إلى جهود واعية طويلة صابرة.. فحاشا وغضبنا وحده لا يكفي.. وأبدنا وحدها لا تصد وملاحنا دون أبلينا ودون صعود معنوياتنا لا ترد ولا تصد.. إن هناك عناصر كثيرة ضرورية لكي نتقل من مرحلة إلى مرحلة.. والمهم أن نتقل وأن نحرص على ذلك.. أما إذا كنا نقف في أماكننا وتخيّل علامات الطريق ونقول: مرحلة.. مرحلة.. ومرحلة.. ومرحلة.. فنحن إذن لسنا واعين.. لكننا في حاجة إلى أن نتعاون جميعاً من أجل وضوح الطريق أمامنا.. لا نرى الطريق فقط بيننا وبين علونا، ولكن بيننا وبين أنفسنا.. فنحن يجب أن نحارب متحدين، لا متفرقين.. واعين لثأمين وكلنا جنود.. ولذلك فمن الضروري أن نعرف وأن نتدرب على كل مستوى.

عالم أطفال.. أطفال

في يوم من الأيام كنت مهوياً بالطريقة التي خلق بها الإنسان.. وكنت أتمنى لو كانت لي حياة أبينا آدم عليه السلام.. فالله قد خلقه من (أديم) الأرض أو من ترابها.. فهو إذن بلا أب ولا أم.. يتم.. أو اليتيم الوحيد.. وأدركت لماذا كان أبونا آدم رقيقاً مسالماً أمام ابنته وزوجته حواء.. فهو أبوها وهو زوجها.. وقد جرب

الحياة بغيرها .. جرب الوحدة الرهيبة . حتى لو كانت في الجنة . ثم إنه كان مضطرا إلى الحياة معها . فلا اختيار أمامه .. إما هي أو عذاب الوحدة . ولكن الوحدة الممكنة التي تصورها وكنت سعيدا بها هي أن يكون الإنسان يتيما .. يولد هكذا .. لا أب ولا أم .. ولكن عرفت بعد ذلك أن النعاسة هي مصير اليتامى ، والقسوة هي عقوبة كل من يرتبط بإنسان يتيم - وهذه قصة طويلة !

وتصورت يوما ما أن الطفل اللقيط أحسن الناس حالا . بشرط أن يكون هذا اللقيط في بلد أورنى . فهناك لا يشعر بأنه لقيط . ولا يكبون في شهادة ميلاده أو جواز سفره أن أمه قد ألفت به في مكان ما ، ثم جاء بعض الناس والتقطوه - كما حدث للنبي موسى عليه السلام . وليس من الضروري أن تسد أمه وراءه حتى تسلك إلى قصر فرعون لترضعه - يكفي جدا أن يشعر الابن أنه بلا أب يعرفه ولا أم .

ونابت باهتمام شديد ومنذ سنوات تجربة المستعمرات الإسرائيلية - الكيوتز - حيث يعملون الطفل عن والديه تماما . فيعرف أن أمه إسرائيل وأن أباه صهيون . وأن أعداءه العرب ، وأنه سيد الكائنات كلها - وهي درجات مركبة من الحقد والتعالي على كل الناس . وفي نفس الوقت لا تولد في الطفل عقدة (أوديب) أي الارتباط بالأب ، ولا عقدة (الكتر) أي الالتصاق بالأم . وبذلك يكون الأطفال بلا مشاكل عاطفية ولا عقد جنسية !

وكتب علماء اليهود عن هذه التجربة كثيرا جدا . وقالوا : إنها فرصة لتصحيح الأخطاء الإنسانية كلها . انظروا الأطفال !

وذهب الناس يخرجون على أطفال في غاية القسوة والصلابة والجفاف - أي بلا إنسانية - فلا حنين للأب ولا امتنان للأم . ولا رغبة في أن تكون لهم أسرة

خاصة ولا أولاد .

وبدو أن إسرائيل بدأت تعدل عن هذه التجربة . فالأطفال في غاية الحزن والجفاف والجمود والقسوة والأمهات أكثر حزناً . أما الآباء فالأمر لا يعينهم . فدور الرجل في أن يكون له طفل دور تافه .. ولكن التي حملت وولدت وأرضعت ثم حرمت من الأمومة ، هي التي تدفع العن غالياً من العذاب !
والخلاصة : ليس أحسن ولا أسوأ مما نحن فيه : أن نكون أبناء نبيكى على أمهاتنا وآبائنا ونلن البنوة والأبوة معاً !

إنها التجربة !

لا وجه للشبه بيني وبين أول رائد للفضاء : جاجارين . ولكن هناك مناسبة تجعلني مضطراً إلى المقارنة . لقد قرأت في كتاب صدر أخيراً بقلم رائد الفضاء عن تجاربه في الطيران وفي القفز بالمظلة .. وهو يؤكد دائماً أنه كأي إنسان يخاف ويضطرب ويتهوم . ولا يدعى أن قوته خارقة للطبيعة . وإنما هو إنسان له تجارب وعنده معلومات . ويريد أن يعرف أكثر . يقول إنه عندما طلبوا إليه أن يسقط بالمظلة من الطائرة شعر بالخوف الشديد . ولم يتصور أنه سوف يسقط كقطعة من الحجر إلى الأرض ملالاً . وسمع من يقول له : استعد .

ووقف في حالة استعداد .. ثم سمع من يقول له : الآن انقز .. ولم يشعر بأي شيء . لم يشعر بأنه قفز . ولا بأنه سمع الأمر أو أطاعه . ولكنه فقط وجد نفسه في الهواء وبعد لحظات لا يعرف كم طولها وجد المظلة قد انفتحت فوق رأسه . وشعر بشيء من النشوة والأمان . إنه الآن في طريق السلامة . ولكن في نفس الوقت أحس باقتراب الأرض . مع أن المسافة بينه وبين الأرض كانت

ما تزال كبيرة .. ولكن في داخله رغبة في الاستعجال لكي يصل إلى الأرض ويستقر عليها .. وسمع الجنود الآخرين حوله وهوقه يضحكون ويتصايحون .. وكاد ينشغل عن النظر إلى الأرض . ثم نظر إلى الأرض وكانت مغطاة بالجليد .. ثم وضع ساقه بالشكل المناسب وهبط في الجليد !

وانتهى كل شيء في ثواني معدودات .. ولم يتم الليلة السابقة على القفز .. ويقول جاجارين وزميله الطبيب الذي شاركه في تأليف الكتاب : إن الخوف طبيعي . والشجاعة طبيعية . والتغلب على الخوف أيضًا طبيعي . ولا يوجد أناس لهم قوى خارقة . ولكن كل الناس في داخلهم قوى خارقة . تنقصها الفرصة لكي تظهر . والتدريب لكي تستمر . فإذا لمجبع مرة ، أصبح يمكننا عشرات و مئات المرات !

أقول هذا وأكرره ولا أصدقه . أما المناسبة فهي الصيف واقترب الناس من الماء ، ماء الحمامات أو البحر . والرغبة في السباحة .. أي مجرد الطفو على الماء . وقد حاولت ذلك عشرات المرات والنتيجة أنني كالذي يقفز من طائرة ولا تفتح المظلة . وإذا كان جاجارين يحاول أن يقول إن كل الناس مثله أو كل الناس متشابهون ، فإني أقول : إلا أنا !

ومن لا يصدقني فليأت ليخرج على التفاعل الكيماوي الذي أقوم به فيتحول الإنسان إلى حجر بمجرد ملامسة جسمه للماء !

لغة الرحمة ..

ركبت مع سائق غاضب يشكو من أن قلوب الناس خلت من الرحمة ، هو الذى قال إنه يعرف سيدة أجنبية فى منطقة حى معروف . هذه السيدة تشتري اللحم والعظم وتسلقها جميعا وتضعها للكلاب والقطة فى الفسالة فى الشارع . والناس حولها يقولون : شوفوا الست المجنونة !

وهو شاهد بعينه أجنبيا يتزل من سيازته ويوقف أحد العريجة ويسأله : لماذا تضرب هذا الحصان ؟ فأجاب العريجي : لأنه لا يريد أن يمشى ؟ ويعود الأجنبي يسأله : وهل سأله لماذا لا يريد أن يمشى ؟ ويقول العريجي : وهل أعرف لغة الحيوان ؟ ويقول الأجنبي : إذا كنت لا تعرف لغته فكيف قررت أنه لا يريد .. إلخ .

والرحمة والرفقة والعدل والإنسانية كلها تبدأ من العطف على الحيوان للمسكين ، والذى لا يعرف العطف على هذه الحيوانات لا يمكن أن يكون رجلا أو عتوقاً على الإنسان . ويقول السائق الغاضب إنه يلاحظ أن أولاده الصغار يحسبون القطة من ذيلها والندجاجة من رقبته ويمضون اليوم كله يصيدون العصافير بالنبلة . فالأطفال - هكذا - نربهم على القوة ولا أب يعترض ولا أم تستنكر . وبعد ذلك يبكي الأب إما على أن أولاده يقسون عليه ولا يقدرعون العذاب والعناء والحرمان الذى يلاقه الأب من أجل لقمة العيش .. وبعد ذلك تندم الأم على أنها حملت وولدت وأرضعت واحتضنت ورعت .. والأم لا تلوم إلا نفسها فقد كان

من الواجب عليها أن تدرك ذلك مادامت قد رأت الأولاد يعذبون الحيوانات ولم تنطق بكلمة اعتراض أو احتجاج .

ويترعج هو جدا لمنظر الأطفال وهم يتفرجون على ذبح الحيوانات في الريف أو في السلخانة .. إنه يحمد عدرا مقبولا للجزار وأولاده . ولكنه لا يحمد أى سبب وجيه لأن يكون للجزارين معجبون وأن يكون لهذه الدماء مصاصون . لا سبب من أى نوع !

ويدافع عن السائقين الذين لا يقفون للأيدى المرفوعة على جانبي الطريق . ويقول إنه شخصيا يفعل ذلك كثيرا لأنه متعب ، ولأنه يريد أن يتناول غذاءه ككل خلق الله .. ويريد أن يسلم السيارة لزميل آخر سوف يعمل بقية اليوم . وكان السائق في غاية الحيوية . فقد كنت أول زبون له . ولا بد أن غضبه سوف يزداد ويصبح غيظاً وحقدًا وثورة على آخر زبون يركب معه في هذا اليوم .. ونزلت .. ورأيت سيدة حاملا وفي يدها طفل صغير أشارت إليه . وانشغلت عن النظر إليه .. ثم عاودت النظر بسرعة ولم يكن عندي سبب واضح لذلك .. ووجدته قد مضى دون أن يرى لحال هذه السيدة التي تحركت شفتاها ويدها تلعن قسوة الإنسان على الإنسان !

.. الدائرة ..

ما الذى يربح أى إنسان إذا سافر إلى الشاطئ أو إلى الريف أو إلى الجوارح بعيداً عن مكان عمله . هناك أسباب كثيرة . ويمكن أن توضع هذه الأسباب تحت هذه العبارة : كسر الدائرة !

نحن « نلحد » في حياتنا في دائرة ضيقة أو واسعة . ولكنها دائرة فالموظف

يدور في دائرة صغيرة . وصاحب الأعمال الحرة يدور في دائرة واسعة .. ولكنه يدور
مثل أى ثور في ساقية . صحيح هناك فارق كبير بين الإنسان والثور . ولكن إذا نحن
ناقشنا تصرفاتنا جميعاً نجد أنها تدل على أننا لا نشكر . وإنما نتصرف وكأن حيواناً
مغمضة . وكأن عقولنا ملغاة . وكأننا نمشى على أربع . وكأنه لا حرية لنا في كل
ما أصابنا . يعنى لا فرق بيننا وبين الثور . وربما كان الفارق الوحيد ، هو أن الثور
لا يعرف معنى أوسع هذه الدعوة وأنها تعرف ولكننا لا نستطيع أن نتخلص من
الساقية أو من الدوران حولها وحيواناً معصية . وهى معصية برغباتنا وشهواتنا
وطمعنا وطموحنا وخاوفنا وحرصنا على الحياة والاستمرار حتى الموت !

والراحة هى أن نكسر هذه الدائرة .. فنخرج من البيت أولاً نخرج .. ونذهب
إلى مكان آخر غير العمل . ثم لا نعمل . وننزل إلى البحر لنستحم . مع أن الماء
موجود في البيت ... ولكن الاستحمام في البحر يختلف : إننا لا نخلع ملابسنا
كاملة ؛ ثم لا نغسل تحت الماء وإنما نلق بأنفسنا به وعلى مرأى من الناس ثم
نستغرق في هذه الحركة البسيطة . وهذا الاستغراق هو إغراقنا لكل أفكارنا
العادية . وكل هذه التصرفات هى كسر للدائرة الأصمالة والأفكار التي اعتدنا عليها
كل يوم .. فكسر الدائرة هو خروج عن ساقية اسمها العادات اليومية ..

.. ومن الممكن أن نجد على الشواطئ نفس الناس الذين نعرفهم . وهذا يديس .
ولكننا لا نلقاهم في مكاتبنا ولا نلقاهم والتليفونات على آذاننا ، والقهوة المرة في
أفواهنا ، واللبخان يمتلئ الجميع .. إننا نلقاهم بلا جدران وبلا ضوضاء
وبلا مداراة . وهذه هى الراحة .

وبعض الناس عندهم القدرة على الراحة بسهولة .. وبعض الناس لا يستطيعون
إلا بصعوبة . والسبب في ذلك : أن هناك أناساً قادرين على تكبير الدائرة
وتعطيمها بسهولة ، ولأنه الأسباب . وهذه موهبة . ومعظم الناس يجدون

أنفسهم مكبلين بالعادات الخائفة لحركاتهم وأفكارهم . ولذلك يشتركون بصورة .. أو يخرجون برءوسهم من حديد الدائرة اليومية ، ثم يعودون برءوسهم وقلوبهم وأفكارهم إلى ما وراء الحديد . وكأن شيئاً لم يكن !

الأطفال أحسن نموذج للعب بالدوائر الصغيرة والكبيرة والحيوانات أحسن نموذج للحياة والحركة في داخل الدوائر الغريزية مئات الألوف من السنين . ونحن الكبار في مركز وسط بين حيوية الأطفال وجمود الحيوانات .. وأكثرنا قدرة على الراحة ، أكثرنا قرباً من الأطفال !

نحن الراحة

الراحة - مثل أشياء أخرى كثيرة - مسألة نسبية . فكم من صاحب عمارة يصعد الدرج الصغير وقد ساندته البواب . المنظر عادى . ولكن صاحب العمارة يحمد البواب الذى فى صحة جيدة . ويمضى النهار كله والليل جالساً فى الهواء الطلق وظهره إلى العمارة . لا يحمل هم العمارة والصيانة والسكان والعوائد والبلدية وأقساط البنك .. لا شيء من ذلك إنه يجلس واضعاً ساقاً على ساق .. فإذا جاء واحد من السكان وقف نشيطاً ويمر بضع خطوات ويفتح للمصعد . ويجلس وفى نهاية الشهر يتقاضى مكافأة على ذلك ، ومن هذه المكافآت يذهب أولاده إلى المدارس وعندهم هدف واحد : ألا يكون الواحد منهم يواكباً وإنما أن يكون صاحب عمارة يقف له البوابون !

وصاحب السيارة يحمد الباقى . فالمقاعد الأمامية مريحة .. والسائق يجلس طول النهار ويمشى من شارع إلى شارع .. ويقابل عندها كبيراً من الناس ... هذا شرق وهذا غربى .. والسيارة تجري من تحته .. ولا شأن له بالبترين أو الزيت

أو قطع الغيار أو الضريبة .. هو جالس والسيارة تجرى .. أما صاحب السيارة فيده على بطنه طول اليوم . وهو لا يجلس على مقعد مريح مثل السائق وإنما يجلس على مقعد خشبي في أحد المقاهي .. ويشكك في لحمه على بطنه لأنه لا يتحرك . ولذلك لمجد صاحب السيارة يقول لك : السيارة لمن يركبها وليست لمن يملكها - يقصد أن السائق هو المالك الحقيقي والمتفع الحقيقي بهذه السيارة !

سمعت طبيباً كبيراً يقول لي إن حياة أى طبيب كبير في السابعة والثلاثين .. في هذه السن يكون قد فرغ من دراساته العليا . ويكون قد فتح له عيادة ويبدأ في تربية الزبائن .. والزبائن لا ينجى إلا للطبيب الذى يشعب معهم أكثر ويتقاضى أقل .. حتى يصبح معروفاً ، ولا يكون معروفاً إلا في الثانية أو الثالثة والأربعين . فإذا أصبح معروفاً مشهوراً ، كان من الواجب أن يدفع ثمن الشهرة .. والشهرة ثمنها المزيد من التعب والتضحية .. ويبلغ السابعة والثامنة والأربعين .. وهو لا يتوقف عن العمل في الجامعة وفي العيادة وفي المستشفى وفي استجابة نداءات المرضى في أية ساعة من ساعات الليل والنهار .. وأن يقوم بدور الملاك الذى لا يكف عن الابتسام والذى لا يعرف التعب .. وفجأة يجد نفسه قد تجاوز الخمسين واقترب من نصف المسافة بين الخمسين والستين .. ويريد أن يستريح ويكون قد تجمع له مبلغ كبير من المال .. ومع المال الكثير من التعب والأمراض .. وفي النهاية يجد نفسه عاجزاً عن الاستمتاع بما جمع من مال أو شهرة .. ويكون عاجزاً عن خدمة المرضى الذين جاءوا إليه تحت تأثير الشهرة .

ويتجاوز الستين عاماً .. ويحس أنه يهبط السفح الآخر للجبل .. وفي نفس اللحظة يكون قد لمع أطباء آخرين جددًا بدأوا يسحبون الضوء من حوله إليهم - وهي سنة الحياة .

وفي هذا الوقت يكون المورجى الجالس على باب العيادة قد جمع أموالاً كثيرة ..

ويجب أقل .. وفي استطاعة هذا الممرض أن يترجى من العبادة ومن قرف
الدكتور الذى تقدمت به السن ولم يعد يزوره أحد .. فهو ليس فى حاجة إلى فلوس ..
إنها نفس الشكوى : الطبيب يحسد الممرض ومالك السيارة يحسد سائقها ..
وصاحب العمارة يحسد بوابها . والأحياء يحسدون الموتى على كل شيء !
إنها مسألة نسية !

العلاج بالقراءة

هناك خطأ واضح فى النظر إلى المستقبل فى تربيتنا ونحن أطفال ونحن ركباز
أيضاً . قصص الأطفال هى محاولة لتجسيم المعانى حتى يسهل على الطفل أن
يلمسها بيديه أو يعبث به .. فقصص الأطفال كلها تدور حول حيوانات وطيور
وأدوات تتكلم . أى كلها تنطق كما ينطق الطفل ليصبح من السهل عليه أن يعيش
معها أو هى تتعايش معه .. وبعد أن نرؤى له هذه القصص نضع فى النهاية للمعنى
الأخلاقى أو الوطنى أو السياسى أو الجمال الذى نريده
فإذا ذهبنا إلى أكثر من ذلك ورحنا نرؤى للطفل شكل الحياة فى المستقبل وفى
الكواكب الأخرى ، تكون هذه القصص بعض الوقت . أى فى السنوات الأولى
من حياته ، وبعد ذلك يكبر الطفل ويتجه إلى أشياء أخرى مختلفة تماماً عن التى
جاءت فى قصصه وهو صغير . وهذا سلوك غريب جداً منا . فالطفل الصغير الذى
نحاول أن نضع له أجنحة طويلة لطير بها بعيداً عن الأرض ، نترع منه هذه
الأجنحة عندما يكبر . فبدلاً من أن يواصل الطيران بأجنحة أخرى جديدة ، فإنه
يحسد نفسه على الأرض . أى أننا لم نكمل به ومعنا الرحلة إلى عوالم أخرى . فقصص
الخيال والجمال تتوقف فى الوقت غير المناسب . ويشعر الطفل الذى كبر فجأة أن

الخيال وعالم الغد من «خرافات الطفولة» !

وهذه هي الغلطة التربوية الفظيعة . فلا يوجد عندنا أدب أو صور للغد . لا يوجد عندنا ما يشغل خيال الشباب والرجل عن الحياة في المستقبل . بل إن كل الدراسات التي يتلقها الأطفال الكبار والشباب هي عن الماضي . فنحن جميعاً غارقون في ماضينا . وعندما نحاول أن نرفع رهوسنا من تحت أهرامات الماضي تكون أعناقنا ورهوسنا قد تعبت ولم تعد قادرة لا على الهرب من الماضي ، ولا على النظر إلى الحاضر . أو تكون نظرتنا قد اتخذت أسلوباً واحداً هو : أن كل ما ننظر إليه يبعث على الأسى .. وإذا أصبح هذا أسلوبنا في النظر إلى ما حولنا ، كانت حياتنا مثل نظرتنا : مكدودة . وأصبح الماضي والحاضر كلاهما يبعث على التأثب !

إذن ما الذي يجب أن يطلق الحياة في حياتنا ؟ ما الذي يشيع الضوء والهواء في دنيانا ؟ لا شيء إلا النظر إلى المستقبل . إلا التفكير في كيف تكون حياتنا غداً .. أو كيف يجب أن تكون . إن قوائم الكتب التي تصدر في روسيا وأمريكا وأوروبا عن الحياة غداً لا عدد لها . فهناك عشرات المؤلفين يصورون للإنسان كيف يمكن أن تنحل مشاكله اليومية .. كيف يمكن أن تخف آلامه وأوجاعه .. كيف يسخرون قدراته الإبداعية من أجل حياة أفضل . كيف أن الإنسان الذي أبدع كل شيء حوله ، قادر على أن يحقق المعجزات من أجل الحياة والسلام . إن مثل هذه الكتب فرصة عظيمة لكي يروض الإنسان عينيه وخیاله على ما هو أجمل وأروع .. إنها فرصة علاجية لكي يريح الإنسان نفسه من ماضيه وماضي الإنسانية ويتجاوز حاضره إلى ما هو أحسن ، أو ما يجب أن يكون أحسن .. إنه عن طريق الخيال تتحقق للإنسان معجزات المستقبل ، هرباً من الماضي وإنعاشاً للحاضر وسعادة بالحياة التي يجب أن يكون لها مستقبل !

عذاب كل يوم

تلقيت من صديق في أمريكا خطاباً أدهشني . فهو يعاقب بشدة . وأعلنت قراءة الخطاب ولم أفهم سبب العتاب . ويعتد أستوضحه . فرد لي خطابي بسرعة فائقة .. وانزعجت عندما رأيت ما جاء في هذا الخطاب ..

ليس في الخطاب شيء من نوع خاص . وإنما كلام وسلام . وربما كان عيب هذا الخطاب أنه « عمومي » أي من الممكن أن أوجهه إلى أي إنسان في أي مكان وبأية مناسبة .. إن هذا الخطاب يشبه الجوارب الجاهزة التي تناسب كل طول وكل عرض . وهو لذلك لا يدل على شيء وفي نفس الوقت لا قيمة له . ولكنه صلعة لمن يقرؤه . لأنه يتوقع مني حديثاً ودياً أو آخرياً .. أي حديثاً خاصاً ، لا يحد إلا خطاباً على شكل منشور دوري !

وماءلت نفسي : ولكن ما ضرورة أن أكتب هذا الخطاب ؟ لا بد أن تكون الضرورة هي أن أبين له أنني مشغول وأن هذا الخطاب أكبر دليل على ذلك .. وأنها محاولة مني أن ألفت إليه بعض الوقت . فلما حاولت كانت نظرتي له ببعض عيني وبجانب من وجهي . والأفضل طبعاً ألا أقول شيئاً من ذلك - وهذا هو المعنى الذي انتهيت إليه أخيراً .. وعذرتي واعتذرت له !

أكثر من ذلك أنني وجدت في الخطاب كلمات بدلا من كلمات أخرى : بدلا من كلمة الحب وجدت كلمة الحرب .. وبدلا من التعبير كبيت « التعبير » .. وبدلا من أن أجعل تاريخ الخطاب ٢٠ نولبر كبيت ٢٠ أكتوبر .. وحق عندما

ناديته باسمه في الخطاب وضعت اسما آخر.. وهي كبرى الخطايا في أى رسالة شخصية بين صديقين !

وليس من الصعب أن يجد الإنسان تفسيراً لهذا كله . ولكن هل يقبل الصديق أن تغير اسمه . وأن تشغل عنه إلى هذه الدرجة . وأن تحدته وأنت عينك وأذنك ولسانك وعقلك في ناحية أخرى .. أياً كانت هذه الناحية !

وهذا يذكرني بقصة لأديب إيطاليا ألبرتو مورافيا اسمها « صاحبة العقاب » . وقد ظهرت هذه القصة على الشاشة بطولة صوفيا لورين .. القصة حدثت أيام الحرب العالمية الثانية . ودخول الأمريكان إلى إيطاليا - في القصة أن سيدة تموت .. وأن واحداً من أبنائها يطلب من أمه أن تسامحه قبل أن تلقى الله .. وتقول له الأم : سامحك ياكارلو !

وينهار الابن . فلم يكن اسمه : كارلو.. وإنما كان له اسم آخر.. ولكن لأن هذا الابن لا يعرف قصة الأم التي أحبت رجلاً غير أبيه اسمه : كارلو ، فقد رأى أمه تتجاهله في آخر لحظة .. وراح يصرخ : كاذبة ، مجرمة .. كان يجب أن أعرف ذلك من البداية .. وألا أقطع هذه الأميال الطويلة لكي أركع عند قدميك !! وتموت الأم .. وكان في استطاعته إيقاظها . ولكنه لا يعرف من حياتها كلها إلا هذه اللحظة !

ولم أجد عذراً لصديق إلا أن أشير إلى هذه القصة .. على أمل أن يستتج الباقي مع افتراض حسن النية .. لأن أية لحظة هدوء وصفاء ليست إلا قطرة من ماء عذب في بحر مالح عاصف بالعقل والقلب معاً - فهذه هي الحقيقة في هذا الخطاب وفي تصرفات أخرى كثيرة في حياتنا اليومية - مع الأسف !

معنى السعادة

هناك ثلاثة أنواع من الناس : واحد يريد أن يعيش ، وواحد يريد أن يستفيد ، وواحد يريد أن يفيد !

والذى يعيش فقط هو مثل النباتات والحيوانات ، لا يسأل نفسه ما معنى هذه الحياة .. ما معنى حياته ؟ .. إنه يريد أن يأكل ويشرب وينام وأثناء النوم نحيى الأطفال ويتقدم فى السن ويموت . وهذا النوع من الناس ليست له مشكلة . ولذلك فهو يقرأ ولا تهمة القراءة ولا يهجم أن يفكر فيه أحد ، لأنه لا يفكر فى أحد . ولهذا السبب سأكتفى بهذا الكلام عنه !

أما الذى يريد أن يستفيد من الحياة ، فهو ينظر إليها على أنها صفقة تجارية . وهو يصحو وينام على سؤال واحد : ما الذى كسبته اليوم ؟ ومن أجل المكسب فإنه يدوس الناس والقيم والإنسانية . فله الأمل هو النجاح .. والنجاح بأى ثمن .. ولكى يحقق النجاح فإنه ينافس الآخرين . وعندما ينافسهم يكرههم ويحقد عليهم والحقد يدفعه إلى الجريمة . والجريمة تكبر فصبح حرباً .. نشأ دولة على دولة .. دولة تريد أن تبيع بالقوة وتكسب بالقوة . ومن أجل المكسب فإنها تحرق الزرع وتطحن الحيوانات .. وتدفن الناس .. وحيث توجد التجارة الجشعة توجد الطبقات . والحقد الطبقي . والاحتكارات .. والاستغلال والانيارات العvisية . والصفحات السوداء فى تاريخ الإنسانية هى التى كتبها التجار بدماء الزمان .. بدماء المستهلكين !

والنوع الثالث هو الذى يسأل نفسه دائماً : ما الذى أستطيع أن أضيفه لحياة الناس .. ما الذى أستطيع أن أعطيه .. إنه فنان .. يتذوق الحياة ويفهم معناها ويعرص على أن يقدم للناس شيئاً يحمل لحياتهم معنى .. ويعمل للمعنى هدفاً ، ويعمل الطريق إلى الهدف مفروشاً بالحب والسلام والتعاون بين الناس ، إن مثل هذا النوع من الناس يعطى راحته .. ويبدل حياته .. وكل الذين ساهموا في إسعاد الإنسانية لا يمكن أن يكونوا تجاراً للحياة .. ولا يمكن أن يكون الاستغلال أسلوبهم .. ولا النجاح بالدماء هو شعارهم من أجل إسعاد البشرية !

.. وإذا كانت السعادة هي الغاية التي يريدها كل إنسان فإن أحداً لا يعرف - بالضبط - ماذا تعنيه كلمة السعادة . إنها مثل الصحة - نحسها ولا نعرف ما هي - إنها مثل الكهرباء نعرفها ولا نراها .. فالسعادة ليست برتقالة نقطفها ونقشرها ونأكلها بعد ذلك .. إنها مجموعة أشياء كثيرة معاً .. وإذا بحثنا في السعداء نجد أنهم هؤلاء الذين يفرسون شجرة وينون بيتاً ويؤلفون قصيدة .. هؤلاء الذين يملأون وقتهم بالعمل المفيد .. فالسعادة هي أن يجد الإنسان نفسه مشغولاً بشيء مفيد .. وأن يجد هذا الانشغال لذيذاً ..

للعظمة أمراضها

أحسن هدية تلقاها الفقراء في نهاية العام الماضي : أن عدداً من الأغنياء قد أصابهم الكوارث والأمراض .

فتلاً : المليونير جيني قطعت أذن حفيده .. وأصبح هذا الحفيد الغني بلا أذن ، بينما ملايين الفقراء يلعبون في آذانهم في وجه الريح والبرد .. كأنهم يقولون : الحمد لله على الفقر وسلامة الأذنين !

والمليونير الأمريكي إريك لونسون قد انكسرت ساقه وهو يحاول أن ينقذ قطعة صغيرة . ويندهش الأطباء كيف انكسرت هذه الساق . فالمسألة التي قفزها لا تزيد على متر واحد .. ثم إن هذا المليونير في صحة جيدة . ونسبة الكليسيوم الموجودة في عظامه متوافرة ، وكل شيء يدل على أنه من المستحيل أن تنكسر ساقه .. ثم إن وزنه حوال ٥٢ كيلوجراماً وسنه ٢٥ عاماً - ولكنه غنى !

والسيدة أديل كلامديون من أغنى سيدات أمريكا قد اختلفت مع أقاربها ومع أقارب زوجها الذي ورثت عنه عشرة ملايين دولار ولما لم تنجب منه ولداً ولا بنتاً قررت أن توصي بترتها لكلابها واشترطت أن تزوج كلابها من نفس الفصيلة . وأن تؤول ثروتها بعد ذلك ال فقير هندي قد رآته في كلكتا ، وتعلمت منه الصبر على المكاره . ولكن القدر لم يرحم هذه السيدة : فقد مات الفقير الهندي .. ثم مات اثنان من كلابها ، أحب هذه الكلاب إليها . ويقول الأطباء إن سبب الوفاة نوع من التسمم ويؤكد البحث الجنائي أن أحداً لم يضع السم للكلاب ، بل يستحيل ذلك .. ويقول الطبيب إن معلوماته تقف عند هذا الحد ، وليس أمامه إلا أن يقول : إنه مرض العظماء .. أو مرض كلاب العظماء ..

وأوصت المليونيرة إن هي ماتت فجأة فكل أموالها لأحد مستشفيات الكلاب . وماتت السيدة فجأة .. ولم يستفد أحد من الناس بلميم واحد من ثروة هذه السيدة التي لا تكن أى شعور نبيل لأى إنسان !

وشكت أرملة الرسام الكبير بيكاسو من ألم شديد في فخذهما . وقالوا : روماتم .. وقالت هي : إرهاب .. وانتقل الألم إلى ساقها الأخرى . وقيل : روماتم . وقالت هي : إن ملايين بيكاسو لم تمكنها من النوم شهراً ..

وانتقلت الأوجاع إلى ذراعيها وكففيها وعمودها الفقري . وعالجها د . روجيه بايو وجاء تشخيصه للمرض بأنه : نقرس .. أى مرض العظماء . ثم عاد يقول :

إن أربعة من أجداد بيكاسو قد أصابهم هذا المرض وماتوا . ولم يكن واحد من أجداده من الأغنياء ..

إذن هو مرض العظماء .. أى أجداد العظماء . المهم أن هذا المرض لا بد أن يصيب في طريقه - ذهابًا وإيابًا - أحد العظماء .. فالعظمة مرض يعدى بأثر رجعى أو يعدى بصورة تقدمية .. كأن العظمة والثراء مرض أو هكذا يستريح الثامس والفقراء العاديون عندما ينظرون بشيء من الغيظ أو من الحقد إلى الذين هم أكبر أو هم أغنى !

بحكم العادة

ما هذا الذى فى داخل كل واحد منا ؟

كيف أن فنجان قهوة يعدل مزاجك . أو كيف أن سيجارة من نوع معين إذا أشعلتها وجلست على مقعد وتراجعت إلى الوراء عدلت رأسك ، وكيف أنك لو جلست على نفس المقعد ، وكانت السيجارة من نوع آخر ، بتقلب مزاجك ، ونحس كأن الكرسي هو الذى فرقك وأنتك فقدت توازنك ؟ وكيف تتناسق قواك ورغباتك إذا دخلت دورة المياه وجلست ورحلت بتقلب فى الصحف ، ثم كيف ترتبك ويتلاشى كل شيء فيك إذا فوجئت بأنها ليست الصحف التى اعتدت عليها ؟ أو إذا كانت الصحف التى اعتدت عليها وقرأت فى الصفحة الأولى خبراً أزعجك ؟

ثم ما معنى أنك إذا وقفت أمام المرأة ، ووجدت أن عينيك منفوختان بسبب كثرة النوم تتضايق ؟ وكيف أنك لو نهضت من نوم متقطع أو كنت مستريحاً برغم ذلك ووجدت احمراراً فى عينيك فإن هذا يزعجك ؟

ما الذى فى داخلك . ما علاقة الشاى والقهوة والسيجارة والصحف بهذا الذى فى داخلك ..

ثم ما الذى تراه فى المرأة كل يوم .. إنك لا تعرف وجهك بوضوح .. لأنك تراه كل يوم ! بينما لو رأيت امرأة لذيقة واحدة فلأنها تستطيع أن تقول لك إنك حلقت ذقنك اليوم وأن جانباً قد حلقت والجانب الآخر قد نبت بعضه . مع أنك رأيت نفسك ساعة أمام المرأة ..

ما الذى يشغلك وأنت تنظر فى المرأة .. ثم بأى قوة فى داخلك ترى وتفكر وتقلق وتستريح . كيف أن القليل جداً من السكر فى الفنجان يضايقك .. ثم كيف انعدام السكر فى الفنجان يضايقك .. ما هو هذا الشيء الذى يجب أن يكون « مطلوباً » لكى تنظبط قدراتك أو إحساساتك .. أو نشاطك .. أو استعدادك للعمل أو للفسحة .. ما هذا ؟

قديمًا جدًا قال الحكم بقراط : إن الجسم الإنسانى يجب أن تتعادل فيه نسب الأشياء . وقد نسر المؤرخون هذه العبارة الموجزة بأن الإنسان يجب أن يأكل قليلاً ويشرب قليلاً . ولم يكن الإنسان قد اعتدى إلى التلخين والتليفونات والمواصلات والدرجات والعلاوات والبطاقات والعيادات . ولكن بقراط يطلب منا أن تكون هذه الاحتياجات أو الضروريات متعادلة أو متقاربة فى أهميتها بالنسبة لنا . وهى مسألة صعبة جدًا . ولا يقدر عليها إلا بقراط الذى كان قليل الطعام قليل الشراب .. وقليل النظر فى العالم كله !

وأسهل ما يقال هو : إن الإنسان يجب أن يفعل ما يستريح له . فالعادة مهمة والإنسان حيوان يصنع العادات ويصبح أسيرًا لها وفى ذلك راحته . فالذى اعتدت عليه يجب أن تعمله . ولكن هل كل إنسان قادر على أن يطبق عاداته هو برغم عادات الآخرين .. هذه مشكلة !

ولذلك فالإنسان يعاني من أزمة خطيرة في حياته : إنه عاجز تمامًا على أن تكون له عادة واحدة في أي وقت لأنه ليس وحده في هذا البيت أو هذا الشارع أو هذا الأتوبيس أو هذا البلد !

قضية مصرية في فينا

المصريون في فينا يتحدثون عن أعجب قضية عرضت على المحاكم النمساوية . إنها قضية أب مصري . إنه يعمل وزوجته أيضًا . وفي يوم عاد إلى البيت ولم يجد أطفاله . ولما سأل قيل له إن عربات المطافئ جاءت وفتحت البيت بالقوة . وحملت الأطفال واختفت .

وذهب الأب والأم يسألان وقيل لهما : لا يمكن أن يعود لكما هؤلاء الأطفال . وحاول الأب أن يعرف فقيل له سبب وجيه جدًا . وهو أن هؤلاء الأطفال سيكون طول اليوم . وأنا الجيران قد اشتكوا إلى سلطات الأمن . وكان لابد أن تستولى الدولة على هؤلاء الأطفال . لأنه ليس من الإنسانية أن يكون الإنسان قاسيا على أولاده إلى هذه الدرجة . إن الدولة لا تفره على هذه القسوة ، وجيرانه لا يعلقون صبراً على بكاء الأطفال .

فالأب والأم عاملان في فينا . ويخرجان من البيت كل يوم ويتركان أطفالهما وراء أبواب مغلقة . ولا يجد الأطفال إلا البكاء ، ولا يجد الجيران إلا الصراخ وإلا لعن آباء الأيوين .

كما أن قوات الأمن قد لاحظت أن البيت غير لائق تماماً لأن يكون به أطفال . فالييت ليس نظيفاً . لا الأطباق ولا الشوك ولا السكاكين . ثم إنه لا توجد لعب كافية للأطفال . ولاحظوا أيضًا أن وجوه الأطفال ليست نظيفة .

وأن أحد الأطفال يشكو من التهاب في عينيه . وبالعرض على الطبيب وجد أن الطفل مصاب في عينه منذ شهر . ولم يعثروا في البيت على زجاجة قطرة واحدة أو أنبوبة مرهم .

وبناء على ذلك فالدولة ترى أن هذه صورة للقسوة لا يمكن السكوت عليها . ولا تقبل الدولة هذا النموذج السيئ للآباء والأمهات والأطفال . كما أن هذه إساءة للنساء كلها التي تعتبر إحدى جنات الأطفال في العالم كله .

ووعد الأب وزوجته المساوية بالعناية بأطفالها ، ورفضت الدولة تسليم الأطفال . ووعدوا بالانتقال إلى شقة أكبر . وكان لابد أن يعثروا على الشقة أولاً ، وهذا مستحيل . ووعدا بأن تترك الأم عملها وتفرغ للأطفال ووعد الزوج بأن يأتي بحرية من مصر (١١) . ورفضت الدولة تسليم الأطفال ، والرجل دائخ أمام المحاكم والأطفال ما يزالون في إحدى دور الحضانة يأكلون ويشربون ويعالجون ويرتدون ملابس جديدة .

وإذا ما حقق الأب والأم الشروط التي وضعها الدولة لتسليم الأطفال فسوف يجدان أنه من المحتم عليها دفع تكاليف هذه الرعاية التي تلقيها الأطفال من الدولة ، مضافاً إليها غرامة كبيرة !

فليس من حقك - في النساء - أن تهمل في تربية أطفالك ، وإذا أهملت فأنت نموذج سيئ تحاول الدولة بكل تاريخها وحاضرها واشتراكيها أن تتأصلك من المجتمع السليم السعيد في البلد الذي ألجب أعظم الأطفال وأكثرهم تعاسة : الموسيقار موتسارت !

مسألة أخلاق

رأيت في مدينة جدة عدداً من المصريين وقد ضاقت بهمصرين آخرين يمشون في الشوارع ويتكلمون بصوت مرتفع وقد ارتدوا الشياشب والطواق : وباواد باحسن وبابت يا علوية .. أنت يا هباب الطين .. إلى آخر الكلمات التي نجدها في الأحياء الشعبية .

إنه هذا الشعور بالفضيحة : أن تجد عدداً من بنى وطنك في حالة لا ترضاهما . أو لا تطيق أن تراهم وقد جلسوا على الأرض يبيعون صفائح الجبنة البيضاء أو الأرز أو مستجات خان الخليلي . ومن حولهم امتلأت المحلات التجارية العامرة بأبناء اليمن وأبناء حضرموت . وليس للمصريين ذكأن واحد ... وإنما هم قد افترشوا الأرصفة هذه هي الصورة أو هي للسلسلات التي تعبر إليهم البحر مع كل سفينة قادمة من السويس !

والمطلوب هو أن يصدر تشريع يمنع المصريين من السفر إلى جدة . كيف يمكن أن تفعل ذلك . إذن لابد من أن تمنع بعض المصريين . ولكن على أى أساس يستطيع إنسان أن يمنع مواطناً من السفر ومن أن يحمل معه الهدايا التي حددها القانون . وبعد ذلك كيف تمنعه من أن يبيع هذه الهدايا أو كيف تمنعه أن يبيصق في الأرض أو يرتدى ملابس قذرة أو لا يرفع صوته عند الكلام ؟ كيف ؟ ..

لا يوجد قانون يستطيع ذلك . وإذا استطاع أن يمنع الناس في مصر ، وهو

لا يستطيع ، فكيف يتمتعهم في السعودية ؟

إننا أمام عدة مشاكل : مشكلة تهريب الأرز ومتجات خان الحللى والجينة البيضاء والحلاوة الطحينية أننا نرى أناسا يتاجرون في كميات كبيرة جدا . لا يمكن أن تنطبق عليها مواصفات المدية . بل إن هذا نوع من التهريب . والآنبحار في قوت الشعب . ولا بد أن نبحث في كيفية تهريبها ، أو كيف أمكن تيسر التهريب أو التستر عليه !

وهناك مشكلة السلوك الاجتماعي أو السلوك السيئ الذي يؤدي إلى السمعة السيئة لمصر والمصريين . وهذه مشكلة أخلاقية . ولو أعطيت أذنك لعشرات المصريين لاستمعت إلى أشياء كثيرة تحزنك . ويتساءل الناس عادة : لماذا نحن دون سائر الشعوب نأكل بعضنا البعض . لماذا المصريون هكذا ؟ ! وهي أسئلة تتضمن معنى واحدا : أن المصريين هم أسوأ الشعوب . وليس هذا صحيحا . فهم ليسوا كذلك في بلادهم ولا خارجها . وإذا كانت هناك عناصر سيئة جدا ، فهناك عناصر ممتازة جدا أيضا . وإذا لم يكن الصحيح أن نقول أن كلهم أشرار ، فليس من الصحيح أيضا أن نقول أن كلهم أفيار .. ولست وحدنا في هذه الدنيا الذين انفردنا بالشر أو بالخير .

ولكن المصريين في الخارج حساسون جدا ويريدون ، وتمنى نحن هنا ، أن يكونوا نماذج رفيعة للسائح والعامل والمقيم . وسوف يتحقق ذلك بعد وقت طويل من التجارب الشعبية ، وبعد أن يستريح الناس في بلادهم ، وبعد أن تمتلئ أيديهم وجيوبهم و بطونهم وعقولهم .. فاصبروا عليهم ، اصبروا علينا !

أذواق

أحصيت عدد أنواع الولاغات الموجودة في أحد محلات مدينة الرياض فوجدتها عشرين شكلا ولونا وحججا . وأثمانها تتراوح بين العشرين جنيها والألف جنية . وهناك ولاغات بها فصوص من الماس وحبات اللؤلؤ . وهناك ولاغات تمشى مع زواير القميص وساعة اليد .. وولاغات عليها حروف ، وولاغات عليها عبارات الحظ السعيد . وولاغة عليها قطة الحظ وولاغة عليها أقدام السعادة .. وولاغة تضيء وأخرى موسيقية ، وقد اختلج البترين من الولاغات وانخفض الحجارة وظهر الغاز والبطاريات . وسوف تظهر ولاغات عطرية .. ولا نهاية لتطوير صناعة الولاغات .

ولكن من أجل ماذا ؟ !

من أجل أن يقدم الناس على التدخين فالولاغة تدفعك إلى السجارة . ولابد أن تكون مصانع الولاغات هي صاحبة المصلحة الأولى في انتشار التدخين . ولذلك فالولاغات تمبها وتزوج لها شركات السجائر العالمية . وهذه الشركات نفسها لا تتوقف عن تطوير السجارة طولا ونحولا . فهناك سيجارة مقاس الملك ومقاس الإمبراطور ومقاس سفن الفضاء .. وهناك سجائر مذهبة وسجائر ذات فلتر من الفحم ولكنه من الورق وفلتر من الورق والفحم . وهناك سجائر بالتنعاع وسجائر بالليمون وسجائر بالبرتقال ..

وشكل العلبة له دخل كبير في جاذبية التدخين . فالعلب طالت وعرضت

وقريت جذرائها .. وهذه الشركات تلجأ إلى أحدث اللامعات الترويجية إذا قررت أن تغير لونها . وقد أقامت إحدى شركات السجائر استفتاء عاما على اللون الذي يفضلونه الزبون . عرضت عشرين نموذجا . ليختار الرجال والنساء والشبان اللعبة التي يفضلونها . فلاحظت أن بعضهم يفضل اللعبة السادة والتي تسمى 'عليها الكلمات باللون الأحمر .. وفصل آخرون اللون الأسود الذهبي .. وفصل غيرهم أن تكون اللعبة حمراء والكتابة بالأبيض الذهبي .. ودرست الشركة حجم جيوب الناس من كل الطبقات وخصوصا جيوبهم الداخلية . واحتويات هذه الجيوب . وألقت في الأسواق نماذج مختلفة من العلب . واختارت الحجم المناسب . وجمعت كل رغبات الناس في ألوان اللعبة وحجمها وتنتج هذه الشركة ألوف الملايين من علب السجائر كل عام .

إنها إذن مؤامرة أنيقة على ذوقك ومزاجك وفلوسك .. وصحتك في النهاية ، إنها خطة مدروسة علميا وأنت ولا أنت هنا . وتظن وأنت تلخن أنك تنفخ والسلام . والمؤكد أنك تنفخ ولكن هذا الهواء الذي يخرج من فمك محسوب بالمليم .. وعندما يداخلك لليل والقرف تجد من يقفز عليك باختراع يغيرك ويسيل لعابك ويقوم بتربيت فلوسك من جيبيك لتشتري السجارة وتحرق عليها لماذا ؟ لأنك في حالة ضيق من نفسك وهذا الضيق يضطرك إلى أن تلخن وعندما تلخن تنسى في دخان السجائر ضيقك وقرفك وعجزك عن التوقف عن التدخين !

معادلة صعبة

فجأة اكتشف كل واحد منا أنه بلا صديق .
وكانت هذه الحقيقة مؤلمة ومخجلة . بل أحس كل واحد منا أنه يقف فوق
سطح إحدى العارات وأن الخطوة التالية هي أن يرمى بنفسه من فوق أو ينتظر ليلا
لعل العارة تسقط به إلى تحت ! شيء عجيب . كيف هذا ؟
والذي حدث أن برنامجا إذاعيا طلب إلينا أن نستدعي واحدا من الأصدقاء
أو أكثر . وإذا لم نستطع أن ندعوه فلا أقل من أن نذكر للسادة المشاهدين أسماء
أصدقائنا . وترددنا جميعا ! من الذى نختاره ! ولماذا نختاره دون بقية الأصدقاء ؟
وأكثر من هذا هل هم حقا أصدقاء ؟ وأقرب من هذا ! من هو الصديق ؟ أو من
هو صديق الذى أراه صديقا صدوقا أو الذى أراه مرة كل أسبوع أو حتى كل
شهر ؟ وأغرب من هذا : من هو الصديق أو ما هي الصداقة . وكيف ؟
وفجأة هكذا يكشف الإنسان أنه بلا صديق . ليس له صديق إذ ليس في
الإمكان أن يكون لأى إنسان صديق . وبصراحة : لا توجد صداقة في هذه
الدنيا . وإنما هناك علاقات بين الناس . وهذه العلاقات كالجو : تبرد وتسخن
وتهب وتسكن وتعصف وتكون مرة رملية ومرة ترابية .. ثم يصفو الجو .. ويشعر
الإنسان أنه وحده على الأرض . أو وحده تحت الشمس أو تحت السماء ! كيف ؟
يجب أن نعتزف بأن الناس تباعدوا ولا تسألنى عن أسباب هذا التباعد . إنها
إحدى حقائق الحياة الإنسانية اليوم . تباعدوا في السكن وفي العمل . وإن

الساعات القليلة التي يمكن أن يتقارب فيها الناس هي : المحاملات الاجتماعية أو الأندية الرياضية أو بالصدقة في الشارع أو عند الطبيب . وأن أحدا لم يعد يناقش أن يعود الناس من جديد إلى حياة القرية حيث يتجاور الناس ويتلاصق الناس وتشابك أيديهم وأفواههم وآذانهم وقلوبهم . هذا غير ممكن . وليس ممكنا إعادة بيت العائلة . فإن البيت الواحد لا يعرف سكانه بعضهم البعض . ولا يتلاقون إلا على السلم أو في المصاعد أو الأتوبيس ..

وفي الأسرة الواحدة يتباعد الأزواج والأبناء . هذا في عمله وهذا في مدرسته .. أو أن الأبناء كبروا وأصبحت لهم مشاغل أخرى أو بيوت أخرى .. وفي العمل كثير من الزملاء . أو الأصدقاء ، أو قليل جدا من الأصدقاء بين أبناء للجنة الواحدة .. هؤلاء الأصدقاء كيف هم أصدقاء . هذا هو السؤال . ولا جواب عليه . أو أن الجواب لا يريح . لأنه غير ممكن أن يتقارب الأصدقاء . فكل واحد له عالمه . وكل عالم مليان ومكهرب أو ملبد بالسحب والمهوم . وكل إنسان مهوم . وكل إنسان غير قادر على أن يحمل همومه الخاصة ومطلوب منه كصديق أن يحمل عن صديقه بعض همومه . وأن ينسى همومه هو .

وكان من نتيجة هذه المهوم الكثيرة أن أحس كل إنسان بأنه وحده وأن أحدا لا يتسع وقته لسماع قصته أو مأساته . ولذلك أصبح للعالم هذا الطعم المر ، فليس فيها هذا الصديق فإن وجود أي إنسان صديقا ، كان شديد الحساسية له . يحاسبه على الصغيرة والكبيرة وبسرعة يجعل أخطائه خطايا . ويفقد الصديق . فإذا فقدته راح يتحلى عن مزاياه .. ويحاول أن يستعيده . ولكنه لا يستطيع .. وبعد ذلك يلعن الصداقة والصديق .. وفي النهاية يجد أنه بلا صديق .. وعندما يصل إلى هذه الحقيقة يضع هذه النقطة السوداء في نهاية كل سطر وكل حديث .

درس في التربية

يمكن جدا ان تموت زوجة رجل وتترك له أربعة من الاطفال ويتزوج بعدها لتربية الاطفال وفي أثناء هذه التربية تأتي له بأطفال آخرين وتتولى تربية الجميع . أو تربية البعض على حساب البعض الآخر . وبذلك يولد الظلم القائم على التفرقة في معاملته أبناء الزوجة وأبناء الزوجة السابقة ..

ولكن هذا الرجل لم يتزوج بعد وفاة زوجته . وقرر بأن يقوم هو بدوره كآب وكأم في غياب الأم . وكان قراره بالألا يتزوج سببه أنه لا يريد أن يضيف إلى شعور أبنائه بفقدان الأم شعورا آخر بظلم الأب لهم ، عندما يأتي لهم بزوجة أخرى .. أو بأم بديله !

وشاءت الظروف أن تموت أخته وزوجها في حادث سيارة . وأن تترك له أربعة من الأطفال . وقرر هذا الرجل أن ينقل أبناء أخته إلى بيته . وأن يتكفل بتربية الجميع . وأن يطلب من أولاد أخته أن يتادوه : بابا .. ولا يحب أن يسمع منهم كلمة « أونكل » فهو أبوهم جميعا ، وسعيد بأنه نذر حياته لذلك ..

ومضى على وفاة زوجته عشرون عاما ، وعلى وفاة أخته سبعة عشر عاما . وفي استطاعتك أن تتصور معظم هؤلاء البنين والبنات في الجامعة الآن . وأنه هو الأب وهو الأم وهو المدرس وهو رجل الدين وهو الطبيب ، ويلقى عظيم الاحترام والامتنان من أبنائه ومن الجيران . وبمحمد الله الذي قد يسر له ولأولاده وأولاد أخته ، كل سبل الرزق الحلال .

وهو رجل مثقف ومتحرر أيضاً . ولكن حريته تصبح في البيت أعمالاً محسوبة . فهو لا يدخن في البيت .. ويدخن خارج البيت . لماذا ! لأنه قرر أن يكون رجلاً نموذجياً . وهو يدعو للصلاة ويؤديها . ويطلب من أولاده أن يفعلوا ذلك ويحاسبهم برفق . ويؤكد لهم ان الله قد أعطاهم الكثير ومن الواجب أن يشكروه على ماآتاهم فيضاعف لهم الرزق والحظ والصحة وحب الناس . وكذلك يفعلون ..

وواحدة من البنات .. تقول له :

- ما رأيك يا بابا ؟

- نعم يا حبيبتي .

- هل أتزوج ؟

طبعاً . ضروري . ألف مبروك من هذا الشاب الذكي الذي اختار فتاة جميلة مثقفة مؤمنة مثلك . إنني أحسده !

- إنه زميلي في كلية العلوم .

- وهل أنت على يقين من احترامه لك وحبه لقيمك الأخلاقية وقدرته على أن تكون له حياة كريمة مستقلة .

- على يقين من ذلك ..

- ألف مبروك . وليبارك الله هذا الزواج ..

وتزوجت أولى البنات .. وتزوجت الثانية والثالثة والابن الأكبر .. وأفراح بالزواج وأفراح بالنجاح . وشكر الله الذي وفق الجميع في كل خطوة نحو السعادة العامة .

وبقية الأولاد في السنوات النهائية .. وكلما نخلت غرفة تحولت إلى مكتبة أو قاعة للاستذكار أو قاعة للألعاب . والبيت لا يفرغ وإنما يمتلئ بالحياة والنور ..

وقال لي صديقي ، الذي لا يريد أن أذكر اسمه وإنما هو يشكر الله الذي أعطاه

الأولاد الناجحين الشاكرين له السعداء بأبونه . والمعيد بيوتهم جميعا : كلها
خمس سنوات لا أكثر .. وبعدها سوف أتزوج . ما رأيك ؟ .
قلت : أب مثالي . وأم مثالية . وأخ ومدرس وطبيب ومصلح اجتماعي ..
أنت مثل عليا . أنت الخير أنت الحب . أنت نادر في هذا الزمان !

مأساة هذه القرية .. وغيرها

لم أكن أعرف أين تقع على خريطة مصر أو الجزيرة قرية اسمها « نزلة
أبومسلم » .. ولكن أخيرا جدا مررت بها أزور أحد أقاربي الذي يملك حديقة
هناك . وسمعت العجب عن الجمعية الزراعية هناك . أو على الأصح فرع الجمعية
هناك .

في معظم الأوقات لا نجد الموظفين . ثم إنهم يخضعون للوائح وقوانين لا نعرفها
في مصر كلها .. ثلاثة أيام إجازة في الأسبوع . هكذا يقولون لك .. وإذا وجدت
الذى يبيع فلن نجد الذى يقبض الفلوس . وسمعت أن هذا القريب الطيب ذهب
إلى الجمعية ليشتري بعض للبيدات الحشرية . قليل له : تعال غدا .. وجاء الغد
وذهب الرجل . قليل له : أهلا وسهلا بك غدا لأن الست التى تقبض الفلوس
إجازتها اليوم . وفي اليوم التالى ذهب الرجل ومضى الصبر قال : هل جاءت
الست ؟ قالت الست : نعم .. أهلا بك غدا لأن الرجل الذى يبيع إجازته اليوم .
فتعال يوم السبت لأن غدا إجازة عادية . ولا بد من يوم السبت لأن الأحد
إجازة ! .

وتندهش إذا ذهبت كما اندهشت أيضا : كيف تقدم الخدمات للفلاحين ؟
كيف يمكن أن نضع النموذج العمل أمام الناس ؟ كيف يكون الذى تعلم قسوة

حسنة لثوراء الذين لم يتعلموا . ولن يتعلموا قبل وقت طويل ..

أذكر أنني رأيت فيلًا هنديًا يصور حياة الفلاحين . والذي أذهلني في الفيلم أن رجلاً ذهب يشكو للطبيب البيطري أن زوجته مريضة . ولم يرد الرجل .. ثم قال له إن الثور الذي يملكه مريض . فرفع الطبيب رأسه ليستمع إلى مزيد من إيضاحات الفلاح الهندي . ونهض الطبيب ليذهب لعلاج الثور . وفي الطريق سأله الطبيب : أيها أكثر مرضاً : زوجتك أو الثور ؟ فقال الفلاح : كلاهما مريض . وسأله الطبيب : إذا كان لا بد أن أبدأ بالعلاج فأيهما تختار ؟ فقال الرجل : زوجتي مريضة لأن الثور مريض . وقال الطبيب : يعني أنت تريد مني أن أعالج الثور أولاً لعل هذا أن يشفي زوجتك ! وهز الرجل رأسه قائلاً : نعم .

ومعنى لنا الفيلم أن الطبيب ذهب لعلاج الثور .. ولم يشأ أن ينظر إلى الزوجة . ومات الثور . وماتت الزوجة ليظهر لنا الطبيب وهو يبكي في نهاية الفيلم .. فلم يكن هذا الطبيب بيطرياً وإنما كان طبيباً بشرياً .. وظهر الفلاح الهندي يبكي على زوجته والثور ..

أما الحسرة فهي التي رسمها المخرج على وجوه المخرجين أسفاً على حالهم - وعلى حال أهل نزة أبو مسلم !

- البحث عن حل -

أريدك أن تتصور المأزق الذى وقعت فيه . أو سوف يحدث لى بعد ذلك .
إننى أمام إنسان يركب سيارة بسرعة وينظر فى المرآة التى أمامه ليمى ما وراءه ..
والإشارة الحمراء دامية أمامه .. ثم هو متجه إلى تقاطع .. ويدوس على البترين ..
ولا يسمع لتحذيرات الناس من حوله ..

والمطلوب الآن : أن يرفع رجله من فوق البترين .. أو يقفز أى إنسان آخر
ويتجه نحو هذا المقعد . ويوقف السيارة تماما . ولكن المشكلة الآن : أنه لا يوجد
وقت كاف لاتخاذ مثل هذا القرار الحيوى . وعلى ذلك ف سوف يحدث ما لا يدرى
به أحد . مأساة .

بعبارة أخرى : هذا رجل أعرفه . ولكن الأيام باعدت بيننا . فلم أره من وقت
طويل وأكاد لا أعرفه . فقد تغير تماما . سافر كثيرا . وتقلب فى البلاد .. أو قلبه
البلاد ولعب به الناس . إنه إنسان مختلف . عرفته بصورة أخرى . كأنه أدخل أحد
الأفران التى تراها فى السينما .. دخل من ناحية إنسانا ليخرج من الناحية الأخرى
شيطانا .. وعنده أسباب كثيرة لهذا التحول العظيم . فقد وثق بالناس كثيرا . فعاقبوه
على ذلك . ثم عاد لا يثق بالناس لا كثيرا ولا قليلا ، فعاقبوه على سوء الظن
المطلق . وأصابته الحيرة بين ما هو خير وما هو شر .. بين الناس الذين يحبهم ،
أو كان يحبهم ، أو ضرورى أن يحبهم ليستريح إليهم نفسيا .. وبين الذين لا يطيعون
حجهم ، ولا يستطيع ان يصارحهم بذلك . ولا أن يجاهر بصدى ذلك فى نفسه .

أما الذى أصابه فهو نوع من « الكفر الاجتماعى » .. كفر بالناس . وحتى إذا كان هناك أى أمل ، فليس هو الشخص الذى يقدر على ذلك ..

وفى هذه المحنة الفظيعة ظهرت فى حياته سيدة . رفضها أول الأمر .. ثم أقبل عليها بعد ذلك ليزداد رفضا لها . ثم رثى لحالها ، فهى أيضا صاحبة مأساة . وما زال يستمع إليها ويتحرك فيه كل مواجع الإنسان .. وأصبح هو مجموعة من الأطراف والأغصان الحانية عليها . وقفزت السيدة على أغصانه كأى بلبل يغنى له ويتغنى بحماسة .. ومالت الشجرة ، وانهار الرجل . وأحميا . وكان ذلك بسرعة أذهلت السيدة وازعجت أيضا . ولكنها لا تعرف ما الذى حدث له ، ولا ما الذى انكسر فى أعماقه .. ولا كيف أنها جاءت لتنقذه من الانقياد الشامل .. فانهار ..

واختفت السيدة لتظهر مع رجل آخر .. وفى التليفون أخبرنى هذا الصديق أنه سوف يقتلها ويتحرر . وأقفل التليفون .. ومطلوب منى أن أحول بين المدمس وقلبي ورأسه بعد ذلك . ولا أعرف أين هو ولا من يثقده من هذا القرار ! ولا أعرف أين أبجد هيتشكوك ليختار نهاية أهدأ وأفضل لنا جميعا !

بأنففسنا نبداً

عندما كنت فى أثينا منذ أكثر من ستة تذكرت مدينة الإسكندرية ونظافتها وبشاشة الوجوه فيها ، منذ خمسة وعشرين عاماً . ما الذى أصاب الإسكندرية ومذنا أخرى كثيرة فى مصر . يقول م . ي المراقب العام بالجمارك بالإسكندرية لعل السبب هو أن اليونانيين كانوا يملأون الإسكندرية وأنهم كانوا سبب نظافتها . ثم رحل اليونانيون ، ويشير إلى حى « الإبراهيمية » الذى عاش فيه اليونانيون ، وكان هذا الحى نموذجاً للنظافة .. ويروى هذه النكتة عن واحد يونانى سمع بالغا ينادى

على البلع ويقول : يا لى نايم فى العسل نوم - ولم يكده اليونانى يقترب من البلع حتى طار ألوف الذباب فقال له اليونانى : خليه نايم فى العسل ١ وانصرف الرجل ..

ويقول م . ي إنها ليست نكتة ، إنها حقيقة الآن تعال تفرج على الإبراهيمية وعلى الذباب والهاب والتراب النائم فى العسل وفى البصل ١

وليست الإسكندرية وحدها التى انفردت بهذا النائم فى العسل وفى الوحل ، وإنما فى بلادنا مدن أخرى كثيرة : فى القاهرة والجيزة .. وفى مدينة المنصورة بلدى ، لا تكاد تنزل من محطة السكك الحديدية حتى تشعر أنك أخطأت الطريق إلى مدينة أخرى فى القرن العاشر للميلادى .. وإلا لما علاقة الخيول والبغال واصطبلاتها الملحقة بمحطة المنصورة ثم ما هذا الذباب والوحل والزفت فى الشوارع ثم كيف يسكت الناس على ذلك كله ؟. كيف لا يقول : آه .. كل من يترحلق على الأرض أو تملوث ثيابه ..

من الذى نلومه ؟ لا يمكن أن نلوم الاجانب لأنهم خرجوا . فهل كان من الضرورى أن يبقوا فى مصر ، حتى لو كانوا أصدقاءنا اليونانيين .. هل من الضرورى أن نظل ضيوفا على كل الأجانب ؟. هل من الضرورى أن نعيش تلاميذ فى مدرسة كل أجنبي يعلموننا الأكل والشرب وعدم البصق على الأرض وإدارة وجوهنا للحائط .. إلخ .

إنه الإهمال العام .. إنه التراخي الشعبى .. إنه التفكك الإدارى .. إن قبضتنا قد اتسعت أصابعها على كل ما هو واجب .. ربما كان اليأس العام سببا معقولا .. وقد أدى هذا اليأس إلى الشعور بعدم جدوى أن يكون الإنسان مطيعا ملتزما نظيف اليد والرجل والبيت والشارع واللسان ..

فا هى بداية النظافة العامة ؟

إنها تبدأ بالنظافة الخاصة ، أى فى البيت ، فى المدرسة .. أى نظافتك قبل أن تنزل إلى الشارع ، فإذا حدث ذلك نحست كطفل وكأب أن الشارع امتداد للبيت ، وإن البيت له صاحب والشارع يملكه الجميع ، وأنه لا فرق بين الذى أملكه وبين الذى نملكه .. إننا يجب أن نصون الجميع بغض الصدق والإخلاص ، وأن البيت إذا كان دليلاً علينا ، فإن مصر كلها صورة لنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا .. وربما كان إحساسنا بالغير أقوى ، ونخوفنا من الفضيحة والعار أقوى من النقد الذاتى .. نحن نهم بالبيت والأكل والشرب وأدوات الأكل والشرب إذا جاءنا ضيوف .. ونهمل ذلك كله إذا لم يكن هناك آخرون يزورون ويتفامزون ويلومون ويعيبون بعد ذلك .. وهذا ما يحدث فى شوارع مصر وأحيائها : إنه الخوف من السائح الأجنبى ، فهل تؤجر مصر مفروشة للأجانب حتى تكون فى نظافة هيلتون وشيراتون وميرديان - عار علينا !

نحن والطوفان

تمهنى جداً قصة الفتاة الأمريكية باتريشيا هيرست ، لا لأنها مليونيرة ولكن لأنها مشكلة حقيقية . وقد تكررت هذه المشكلة أو هذه المأساة ألوف المرات دون أن نلاحظ ذلك . وهى مشكلة لم تجد حلاً إلا على شكل مأساة . ومنذ يومين فى القاهرة انتحرت فتاة وانتحرت اختها من بعدها لنفس السبب : قسوة الأب وقسوة الأم . أو عنف الأب وسلية الأم . فكانت السلبية نوعاً آخر من القسوة . أما النتيجة فهى أن الفتاة هربت من الأب ومن الأم إلى عالم آخر بلا آباء ولا أمهات ولا قسوة ولا رحمة : العالم الآخر !

والانتحار ليس حلاً .. ولكنه يأمن من وجود حل . وأنا أعرف هذا المعنى

جيدا . فقد فكرت في الانتحار أكثر من مرة .. ولم أجد حلا .. أو لم أجد أحدا أقول له حيرتي ودونقي وعذابي مع نفسي ومع الناس . وفي حالة اليأس والقرق وتفاهة الدنيا وتفاهتي أيضا جعلت من نفسي قاضيا ومحاميا ووكيلا للنياذة وجلادا وقررنا جميعا إعدام ذلك الشخص الذي وقف أمامنا : أنا . ولأسباب غريبة لم أتمكن من تنفيذ الحكم . ولكن المشكلة بقيت في مكانها من نفسي . وهى أن الإنسان عندما لا يجد أحدا أو عندما لا يجد « الأحد » أو الشخص الذى يريد حنانه ، فإنه يترك الدنيا كلها . لا يبحث عنه ولكن يأمن من البحث عنه والعثور عليه !

والفتاة الأمريكية قالت الكثير في تفسير انضمامها إلى إحدى العصابات .. أو اضطرارها إلى ذلك .. ثم تبرير ما حدث .. أو تفسير ما حدث .. ولكن الواضح جدا أن الفتاة ليست آسفة على ما فعلت . وإنما هى وجدت . في إزعاج والديها ودهشة الناس . عقابا كافيا لوالديها .. لأن هذه الفتاة أرادت أن تعاقب والديها على إهمالها والانشغال عنها .

وهذه هى مشكلة الجيل . أى كل جيل في كل عصر .. إنها مشكلة نوح عليه السلام وابنه .. فلما حدث الطوفان ألقى ابنه بنفسه في الماء ، وقال له أبوه : يا بني أركب معنا .. فقال له الولد : لن أركب وإنما سأسبح في الماء حتى أصل إلى الجيل .. أو إلى الشاطئ .. قال أبوه : لا شاطئ اليوم .. تعال معنا !

ولابد أن ابن نوح قد لاحظ اهتمام والده بجميع الحيوانات والنباتات من كل نوع ولون .. لأنه مشغول بأن يحفظ الحياة أو يذور الحياة ليعيد غرسها على الأرض من جديد عندما ينحسر للماء .. وأدرك الابن أن أباه أمله أو انشغل عنه .. وأن هذه الحيوانات جميعا أهم وأبقى وأنفع منه .. فانتحر الابن .

هل هى عقوبة يستحقها كل أب ؟ فالابن يطلب كل شئ مضافا إليه الحنان .

فإذا أعطاه الحنان طلب كل شيء .. فإذا أعطاه كل شيء والحنان فيجب
ألا يشكره على شيء .. لأنه لا شكر على واجب !!
منتهى العقوق أيها الأبناء !

الحب لا يشتري

شيتان لا يشتريان بالمال : الصحة والحب !
أما ابنة المليونير الصحفي هيرست فقد وجدت المال والصحة . ولا يبق
إلا الحب . ثم وجدت الشاب الذي يحبها . وترك بيت والدها وعاشت مع الرجل
الذي يحبها . وهي قد فعلت ذلك لأنها حرة تفعل ما تشاء ولسبب آخر هام جدا هو
أن لديها إحساسا بأن أمها لا تحبها . وأن والدها رجل غني وقد وفر لها كل ما تريد
واعتقد أن هذا يكفي .. فليس عنده وقت لكى يراها أو يتحدث إليها .
وفي إحدى المرات سألت أباه : بالضبط ما هى علاقتك بي ؟
ولم يحد الأب ما يقوله سوى أن ابنته تداعبه . ولما وجدها جادة فى سؤالها طلب
إليها أن تنام مبكرا . ولما وجدها متجهمة طلب إليها أن تكف عن قراءة كتب
الفلسفة . ولما وجد الحزن عميقا على وجهها طلب إليها أن تترك خطيبها مادامت
هذه أفكاره . ولما كان الصمت الحزين العميق هو الحائط العالى الذى وجده أمامه
قال لها : اسمى يا ابنتى .. أنت أحسن حالا منى . فأننا لم أر أسمى ولا أبهى .. وأنت
ترين الاثنين كل يوم . وفي هذا الكفاية !
ولم يكن جوابا شافيا ، وإنما كان مما دخل دمها .. أو سيكروبا تسرب إلى قلبها
وعقلها . وأحست باتريشيا هيرست أنها غنية جدا . ولكنها يتيمة . بلا أبوين .
فأبواها موجودان ولكن ليسا فى حياتها ..

وذهب الأب إلى الطبيب النفسى يسأله عن « حالة » ابته . وكان رد الطبيب أن الفتاة تعاني من العزلة النفسية .. وأن أى إنسان يجلس وحده أو يعيش وحده سوف تهبط عليه طيور جارحة تحطفه إلى مكان بعيد .. وليست هذه الطيور سوى الأفكار السوداء أو التزعات الإجرامية أو الانتحارية . وأن الفتاة لديها استعداد عظيم لذلك !

وصدقت نبوءة الطبيب .. وانضمت الفتاة إلى إحدى العصابات .. أو عرفت إحدى العصابات أزمة هذه الفتاة وخطفتها . أو أن خطف الفتاة كان نوعا من توارد المخاطر . فهي قد قررت أن تختفى أو تتوارى أو تعاقب الأبوين على هذا الالهال .. أو أنها قررت أن توجع قلب الأب الغارق فى الذهب ، أو الأم المدفونة فى القسطين والحفلات ! .

ولم يفهم الأب إلا أخيرا أن ابته هذه كانت فى حاجة إلى شيء أكثر من الفلوس أو شيء لا يمكن شراؤه بالفلوس : الحب .. أو الحنان . وأن الحب الذى تجده فى الخدم والحاشية ليس هو الحب . وإنما هو نوع من الحب الصناعى .. مثل « اللبن الصناعى » .

والطب الحديث ينصح الأم أن ترضع طفلها من لبنها ، وليس من « اللبن الصناعى » .. فأطفال اللبن الصناعى سوف يصابون بأمراض كثيرة .. وكذلك أطفال « الحب الصناعى » و « الحنان الزائف » .. وليست هذه الفتاة المليونيرة إلا نموذجا صارخا لذلك ! ..

إصدارات

الاستاذ

أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

- ١- في صلتون العلاء.. كتبت لنا أيام.
- ٢- عاشوا في حياتي.
- ٣- (لا قليل).
- ٤- طلع البدر علينا.
- ٥- تلبية في حياتي.
- ٦- نحن أولاد الفجر.
- ٧- من نفسي.
- ٨- حتى أنت يا أنا.
- ٩- أضواء وضوء.
- ١٠- كل شيء لسبي.
- ١١- لأول مرة.
- ١٢- شارع التهنيدات.

(ب) دراسات سياسية:

- ١٣- الحلق والدموع.
- ١٤- وجع في قلب إسرائيل.
- ١٥- الصلابة (الجيل الجديد في إسرائيل).
- ١٦- عهد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا.
- ١٧- في السلسلة (٣ أجزاء).
- ١٨- الدين والديمقراطية.
- ١٩- لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
- ٢٠- السيدة الأولى.
- ٢١- التاريخ أنقلب وانقلب.

٢٢- الخلدون مائة - أعظمهم

- محمد (صلى الله عليه وسلم).
- ٢٣- على قلب العبد.
- ٢٤- ديفت أخرى.
- ٢٥- وكنت الصحة هي الشن.
- ٢٦- الغرياء.
- ٢٧- الخبز والقبلات.

(ج) قصص:

- ٢٨- عزيزي فلان.
- ٢٩- هي وغيرها.
- ٣٠- بقايا كل شيء.
- ٣١- يامن كنت حبيبتي.
- ٣٢- قلب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

- للكاتب السويسري فريد ريش ديرنمات:
- ٣٣- رومولوس العظيم.
- ٣٤- زهرة السيدة العجوز.
- ٣٥- زواج السيد مصيبي.
- ٣٦- الشهاب.
- ٣٧- هي وعشاقها.
- للكاتب السويسري مكس فروش:
- ٣٨- أمير الأراضي البور.
- ٣٩- مشطو الثيران.
- للكاتب الفرنسي جان جيروود:
- ٤٠- من أجل سواد عينيها.

•• للكتاب الأمريكي آرثر ميللر:

٤١- بعد المظبوط

•• للكتاب الأمريكي تنسى وإيليز:

٤٢- فوق الكهف.

•• للكتاب الأمريكي يوجين أونيل:

٤٣- الإمبراطور جونسن.

•• للكتاب الفرنسي يوجين لوبونسكو:

٤٤- تعب كلها الحياة.

•• للكتاب الفرنسي أداسوف:

٤٥- قهلب واشتبات.

•• للكتاب الإسباني أزابال:

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنن أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- ألوان من الحب.

٥١- شهاب.. شهاب.

٥٢- مذكرات شهاب غاضب.

٥٣- مذكرات شهاب غاضبة.

٥٤- جسمك لا يكذب.

٥٥- الذين هلجروا.

٥٦- غرباء في كل عصر.

٥٧- أطفالها الطويلة.

٥٨- صوم هذا الزمان.

٥٩- زمن الصوم الكبيرة.

٦٠- الحب الذي بيننا.

٦١- عذاب كل يوم.

٦٢- كيمياء الفضيحة.

٦٣- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.

٦٥- الذين غفوا إلى السماء.

٦٦- القوي الخفية.

٦٧- أرواح وأشباح.

٦٨- لغة الزراعة.

٦٩- نقلت الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.

٧١- وداعاً أيها الملل.

٧٢- كرسي على الشمال.

٧٣- ساعدت بلا عقارب.

٧٥- مع الآخرين.

٧٥- شرع من الفكر.

٧٦- لو كنت أيوب.

٧٧- يعيش.. يعيش.

٧٨- الوجودية.

٧٩- طريق العذاب.

٨٠- وهدى.. مع الآخرين.

٨١- مالا تعلمون.

٨٢- تحفظت مسروقة.

٨٣- كُتِبَ عن كتب.

٨٤- قُتِمَ الناس أيها الشعراء.

٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

٨٦- أوراق على شجر.

٨٧- في تلك السنة.

٨٨- دراسات في الكتب الأمريكية.

٨٩- دراسات في الكتب الألمانية.

٩٠- دراسات في الكتب الإيطالية.

٩١- فلاسفة وجوديين.

١٢- فلاسفة العلم.

(ح) رحلات:

١٣- حول العالم في ٢٠٠ يوم.

١٤- بلاد الله خلق الله.

١٥- غريب في بلاد غريبة.

١٦- اليمن تلك المجهول.

١٧- أنت في اليابان وبلاد أخرى.

١٨- أظيب تحبتي من موسكو.

١٩- أعجب الرحلات في التاريخ.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٠- مدرسة الحب.

١٠١- حلمك وشيخ علم.

١٠٢- مين قتل مين.

١٠٣- جمعة كل واشكر.

١٠٤- الأحياء المجاورة.

١٠٥- سلطان زمانه.

١٠٦- العفري.

١٠٧- كلامك باجالة.

١٠٨- فوق الركبة.

١٠٩- هذه الصغيرة (ولمصر أخرى).

١١٠- يوم يوم.

١١١- إنها الأمراء الصغيرة.

١١٢- إلا لظمة.

١١٣- القلب أبدأ يدق.

(ي) المسلسلات التلفزيونية:

١١٤- حقنة بينج.

١١٥- اثنين.. اثنين.

١١٦- عريس فاطمة.

١١٧- من الذي لا يحب فاطمة.

١١٨- غاضبون وغاضبت.

١١٩- هي وغيرها.

١٢٠- هي وعشقها.

١٢١- العفري.

١٢٢- القلب أبدأ يدق.

١٢٣- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات) :

١٢٤- ثم ضاع الطريق.

١٢٥- النجوم تولد وتموت.

١٢٦- هناك أمل.

١٢٧- أحب وأكره.

١٢٨- الحيوالت ألطف كثيرا.

١٢٩- مصباح لكل إنسان.

١٣٠- اتصني لك.

١٣١- لعل الموت ينمنا.

١٣٢- اقرأ أو شيء.

١٣٣- ولكني أتأمل.

١٣٤- حتى تعرف نفسك.

١٣٥- الحب والفلس والموت.. ولنا.

١٣٦- نحن كذلك!!

١٣٧- اللهم إني مسبح.

١٣٨- كللت فوق.

١٣٩- تعالى فلكر مفا.

١٤٠- آه لو رأيت!

١٤١- التمر على الحدود: لعبة كل

العصود.

١٤٢- انتهى زمن الفرص الضائعة!

١٤٣- هناك فرق.

١٤٤- الرئيس قل لي.. وقتك أيضا

- الجزء الأول والثاني.

(ل) الترجمات القصصية:

- ١٤٥- رواية (الجزيرة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
١٤٦- (المتفكرون) للأديبة الوجودية سيمون دوبوفوار.
١٤٧- (لو كنت ملكي) للأديب السويسري ملكس هوش.
١٤٨- (قصص مورافيا) للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
١٤٩- (الجدل) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
١٥٠- (الجيل الصالح) للكاتب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

- ١٥١- الفلسفة الوجودية الألمانية لإميل تيلر.
١٥٢- الفلسفة الوجودية الفرنسية- لجان جاك روسو.
١٥٣- معنى العلم عند هيجل وميلترز- لجاكيت أرمغان.

- ١٥٤- مسرح لعبت الفرنسي- إتيان ماريو.
١٥٥- الفيلسوف الروسي برونكف- لفيكتور لولتيف.
١٥٦- سن كيركجور إلى مارسيل- لأنطوان هاريف.
١٥٧- سيمون دوبوفوار تنميذة رصينة- لفرنسواز روسلان.
١٥٨- رسائلها إليه- لفرنسواز روسلان.
١٥٩- فلاسكون لكن نبلاء- لجان ماري رول.
١٦٠- ما الميتافيزيقا؟- لمارتن هيجل.
١٦١- الوجودية فلسفة إنسانية- لجان بول مارتل.
١٦٢- لفلسفة حنا أرنت- تنميذة للفيلسوف الألماني مارتل هيجل- آدم برجشتاين.
١٦٣- كروثه فيلسوف الحرية- لآبرابيل لورنتس.

ثلاثون حكاية علمية

رجب سعد السيد

العدد
القادم

اشترك فى سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولاراً أمريكياً.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولاراً أمريكياً.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الاشتراكات
بمؤسسة دار المعارف.

و بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة